الفصل الثاني

جمالية أسلوب الخبر

القسم الأَول : مفهوم الخبر وأغراضه وأساليبه

1 . مفهوم الخبر

انتهينا فيما سبق إلى أن البلاغيين العرب لم يتفقوا على تعريف واحد للخبر؛ وإن شاع تعريف القزويني له قديماً وحديثاً... وملخصه أنه كل كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته...

ويؤكد ذلك تعريف فخر الدين الرازي (ت 606 هـ) بقوله: إنه "القول المقتضى بتصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي أو بالإثبات. ومَنْ حَدَّه بأنه المحتمل للصدق والكذب المحدودين بالخبر لزمه الدور. ومن حَدَّه بأنه المحتمل للتصديق والتكذيب المحدودين بالصدق والكذب وقع في الدور مرتين"[1]. فالنفي تعمد الكذب لا النطق به كقول الكافر: (الحق باطل)... أما تصديقه فهو قوله: (الحق عَدْلٌ).

وبهذا نظروا إلى الخبر باعتبار مطابقة الواقع أوْ لا؛ بغض النظر عن قائله؛ كونه صيغة لغوية تحقق نسبة من الحقيقة تماثل الواقع أو تنقضه كقولنا: (حقق العرب وحدتهم)، أ, (انتصر الحق على الباطل)، أو نجح زيد... ولكنهم أخرجوا كل ما يتعلق (بالقرآن والحديث والبديهيات والحقائق العلمية والمسلمات التي لا يشوبها الشك) من احتمال الكذب فيها مع أنها تنتمي إلى الإخبار... وبناء على ما تقدم فهو أسلوب بلاغي جمالي شديد الإثارة في

obeikandl.com

التركيب وإن ظهر للوهلة الأولى أنه بسيط وقريب. وكنا أبرزنا في مناقشتنا السابقة عدم دقة تعريف الخبر لديهم؛ لقصور واضح في جوانب شتى. ويمكننا أن **نعُرّف الخبر** في إطار ما سبق كله **بأنه كل كلام يحتمل الصدق أو الكذب لذاته أو باعتبار اعتقاد قائله أو باعتبار الواقع الحقيقي أو الفني.**

ولعل هذا التعريف لا يُخرجُ - من معنى (الخَبَر) المتفق عليه -أيَّ نمط من أنماط القول التي ينطبق عليها حدّ الصدق أو الكذب... وهو يسلمنا إلى بيان أغراض الخبر الحقيقية ثم المجازية؛ ومن بعدُ يوقفنا عند أضرُبه ومُؤكداته... ليثبت ذلك كله أنه من الخطأ الفادح التعامل مع أسلوب الخبر على أساس صورته اللغوية المباشرة، أو من خلال ما شاع له من تعريف أحادي الاتجاه. فلو قرأنا معنى الخبر التي في قول الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجَدة مفسدةٌ للمرء أي مفسدَهْ

نقول لو قرأناه في إطار مقولة الصدق والكذب لضاع بهاؤه؛ وتحسرنا على فضاءاته... وهذا ما نحاول بيانه.

2. أغراض الخبر وأساليبه

نظر البلاغيون إلى أغراض الخبر باعتبار المتكلم - ووفق مقتضى الظاهر - فوجدوا أن له غرضين أصليين. فهناك جملة ألقاها المتكلم بغرض إفادة المخاطب؛ أطلق عليها (فائدة الخبر). وهناك جملة أخرى أُلْقيت بغرض الإمتاع وتحقيق الخبر وتوكيده عند السامع أطلق عليها اصطلاحاً (لازم الفائدة).

ونظروا إليها باعتبار المتكلم والمخاطب - وبخلاف مقتضى الظاهر - فوجدوا لها ثلاثة أغراض، ثم رأوا أن هناك أغراضاً خرجت عن ذلك كله فأطلقوا عليها الأغراض المجازية... وهذا كله ما سنحاول إيضاحه تباعاً.

أولاً . الأغراض وفق مقتضى الظاهر :

للخبر غرضان وفق هذا الاتجاه وهما :

أ . فائدة الخبر :

هو إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة أو الكلام... وهو الأصل في أي خبر يقدمه المتكلم للمخاطب... وفيه يتصور المتكلم أن المخاطب خالي الذهن من علمٍ يقدم إليه بالخبر، ولم يفكر فيه، ولم يُعمل ذهنه بمعرفته؛ ولم يكن له موقف نحوه فيقدم له المتكلم جديداً يفيده به؛ أي إنه يريد أن يفيد السامع بما كان يجهله...

ونرى هذا الخبر ينظر إليه باعتبار المتكلم وحده؛ مما ينقض آراء البلاغيين حول التعريف الذي تبنوه للخبر وفق علاقته بالمخاطب... ونبدأ بقوله تعالى: ﴿تبارك الذي نزَّل الفُرْقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ (الفرقان 1/25 . 2). فالله سبحانه وتعالى الذي يتصف بالعدل والصدق.... أراد هداية البشر فأخبرهم بأنه نزل كتابه على رسوله لينذرهم بوساطته إلى صراط مستقيم... ولم يكن لديهم علم به قبل نزوله. ومثله قول الفرزدق حين طلق زوجه (النوار) ومن ثم ندم على فعلته التي أخرجته من جنتها؛ مثله مثل آدم الذي أخرجه فعله من الجنة؛ فهو يخبرنا بذلك ولم نعلم به من قبل:

وكانَتْ جَنَّتي فَخرجْتُ منها كآدمَ حين لجَّ بهِ الضِّرارُ

وقال المتنبي موضحاً لسامعيه ما ينبغي أن يراه في الناس من القدرة على عمل الخير:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

فهو يفيدهم بما لا يعرفونه، ولهذا فإن أسلوب الخبر يتجه إلى المشاكلة في التوازن والترصيع لحقيقة قدرات الناس بين صغارهم وكبارهم. ثم إن هذه

الجمل التي استشهدنا بها تناقض ما قاله البلاغيون في شأن توضيح غرض الفائدة حين حصروه بالجملة الخبرية المتجهة إلى ذلك دون التواء؛ وأخذوا الشواهد من القرآن والشعر استناداً إلى التفسير الظاهري للخطاب اللغوي المباشر. ومن هنا تحررنا من الخطاب المباشر من جهة؛ وربطنا الخبر بالمتكلم من جهة أخرى، إذ تبينا أن القول الذي يلقيه المتكلم لإفادة المخاطب يتضمن فكرة بديعة بأسلوب أدبي رفيع ومثير... ومنه قوله تعالى: ﴿الفتنة أشد من القتل﴾ (البقرة 191/2).

فهو حكم مطابق للواقع الحقيقي ومنسجم مع تطلعات المتكلم الفنية والبلاغية، على اعتبار أنه يعرف تماماً ما يهدف إليه.... وعليه قوله تعالى في الإخبار عن الغيبة ـ وهو كثير في القرآن الكريم ـ: ﴿إنَّا فَتَحْنا لك فتحاً مُبيناً﴾ (الفتح 1/48).

ب ـ لازم الفائدة :

هو إفادة المخاطب (المتلقي) بأن المتكلم يعرف أن المخاطب عالم بالحكم؛ ولهذا فلا يقدم معرفة أو علماً يذكر للمخاطب... ولعل هذا يقلل من قيمته الدلالية أو الجمالية، مما يدعو إلى إهماله أحياناً.

هذا ما رأيناه في بعض كتب البلاغة عن هذا الغرض؛ فالمتكلم يريد إخبار المخاطب أنه يعلم الخبر الذي يعرفه.... وهنا يُستشهد ببيت المتنبي في مدح شجاعة سيف الدولة وبطولته:

تدوسُ بكَ الخيلُ الوكورَ على الذُّرا وقد كثُرَتْ حول الوُكورِ المطاعمُ

فسيف الدولة يعلم علم اليقين أنه شجاع -قوي لا يتردد في ملاحقة الأعداء - كما هو في بعض كتب البلاغة، ولا تزيد عليه شيئاً يُذكر كما ذهبت إليه ولكنه لا يعلم هذا الوصف التصويري البديع الذي ساقه المتنبي على هذا الوجه....

ولو افترضنا أن زيداً قد زار صديقه محمداً؛ فخاطبناه بقولنا: (زارك زيد

البارحة) لكان الخبر من هذا الباب، لأنه لا يحمل عبارة مشرقة ومفيدة؛ ولكن لو ضمناها حقيقة ما حدث بينهما من لقاء جميل لأدرك المخاطب أنها ليست لمجرد الإخبار بما يعرف ولكن بما تتصف به من الإمتاع... وفيه تمكين زيادة المعرفة والعلم بدلالتها. وهذا الذي يتّصف به الكلام البليغ الذي يمتاز من الكلام السقيم. وهذه هي دلالة وصف المتنبي لشجاعة سيف الدولة. ومثله وجدناه في مدح الفرزدق لسليمان بن عبد الملك بعد تسلّمه الخلافة بسَنَة:

أرى اللهَ في تسعين عاماً مضَتْ له وسِتٍّ مع التسعين عادَتْ فواضلُهْ

فسليمان يعلم أن الإسلام مضى عليه من الهجرة ستة وتسعون عاماً انتهى فضلها كله إليه.. ولكن الفرزدق ساقها بشكل لطيف ومثير حين ساق الخطاب بإرادة إلهية؛ وجعل الخير يستقر بين يدي سليمان.

فمشاركة المتكلم المخاطب بمعرفة الحكم كلام مفيد بيد أنه قد لا يضيف تفرداً جمالياً إذا حُمل الخبر على المفهوم الحدّي للازم الفائدة، فحين قلنا لمحمد قبل قليل: (زارك زيد البارحة...) فقد ألقيها بطريقة تدل على استهجان، أو تعجب، أو مدح... ما يجعلها ترتبط باعتقاد المتكلم ومشاعره وتصوره، فيضاف إلى باب الاشتراك في الحكم معنى جديد لم يعرفه المخاطب. ولهذا يصبح لعلامات الترقيم مكانة جمالية في أساليب البلاغة ترتبط بالقرينة مشافهة وكتابة. ثم إن القرينة في الكلام قد تدل على معنى لا يعرفه المخاطب، أو لا يتخيل أن يقوله المتكلم على الوجه الذي سيق فيه... وهذا ما نستشفه من مدح المتنبي لسيف الدولة الذي طفح وجهه بالبشر حين رأى هزيمة عدوه وكثرة ما أوقعه بالأبطال من القتل والجراحة؛ ولكن لم يكن يعلم بالطريقة التي سيصف بها المتنبي ذلك كله في قوله البديع القائم على مفهوم التقابل الجمالي الطريف بين الشطر الأول والثاني، فالأول يوحي بالعبوس، وجهامة وجه المهزوم، والثاني يشي بانتصار سيف الدولة وعزته، حين طفح وجهه بالبشر والفرحة، وهو يستعرض جنود أعدائه المهزومين فيقول:

تمرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمى هزيمةً ووَجْهُكَ وضَّاحٌ وثَغْرُكَ باسمُ

فنحن نُقرُّ بمبدأ التقسيم الوارد في الخبر، لكننا نرى فيه أضحُوكةً وضَحالة إن وقف عند مفهوم الاشتراك في حكم المعرفة بين المتكلم والسامع في لازم الفائدة.

وهنا نسجل لعلم الكلام فضلاً على أسلوب الخبر، إذ قدَّم رؤىً جديدة لأغراضه؛ وبخاصة حين منح أسلوب الخبر بعض المصطلحات مثل (المحكوم عليه) و(المحكوم به) و(لازم الفائدة).

وعلى الرغم من أنه قيَّد البلاغة بمفاهيمه المنطقية الخاصة؛ فإن البلاغة بجمالياتها بقيت أعظم منه بكثير... ما جعلتنا نقترح تعريفنا السابق للخبر، ثم عرضنا تحليلاً جمالياً لغرضَي الخبر، وهو تحليل يتفق مع روح البلاغة وأساليبها الفنية... دون أن ننكر تقسيماتها أو تفريعاتها بحدّ ذاتها، وإن لم ترتق إلى ما تحدثنا عنه.

هذان هما الغرضان الأصليان اللذان يهدف إليهما الخبر وفق مقتضى الظاهر... ويقول السكاكي: "ثم إنك ترى المُفْلقين السحرة في هذا الفن ينفثون الكلام لا على مقتضى الظاهر كثيراً"[2]، وكأنه لا يرضيه إلا هذا الغرض؛ إذ يستشف من عبارته أنه يزري بمن سبقه في الحديث عن هذا الغرض.

ثانياً ـ الأغراض بخلاف مقتضى الظاهر:

ترتبط الأغراض التي تخرج بخلاف مقتضى الظاهر بالمتكلم، فالمتكلم يعامل المخاطب على أنه خالي الذهن متردّدٌ سائل، أو خالي الذهن شاكٌّ، أو خالي الذهن مُنْكِر... وكل ذلك مرتبط بمقاصد المتكلم ومعرفته... وبتصوره لأحوال المخاطب... لهذا كله ينزل المتكلم المخاطب المنكر منزلة غير المنكر والعكس صحيح لمقاصد بلاغية ما... إنها ثلاثة أغراض في عرف البلاغيين

obeikandl.com

العرب، ويزيد الفراء والزمخشري وغيرهما غرضاً رابعاً فنياً... وهو استعمال لفظ مكان لفظ لأمر بلاغي ما... وسنعرضها بالتفصيل.

أ. إنزال خالي الذهن منزلة السائل المتردّد والشاكّ والمُنْكِر

سنتوقف في نهاية القسم عند أضرب الخبر التي تتركز في أحوال المخاطب ذاته؛ وسنرى أن طريقة كل غرض خبري تجري تبعاً لأحواله في قبول الخبر أو إنكاره... وهي تماثل ما سنعرضه هنا لكن المنطلق هو مراعاة المتكلم أو المخاطب ولهذا يحتاج المتكلم إلى توكيد خبره بمؤكد أو أكثر حسب الحاجة في الخطاب... وهذا هو الشيء الحسن في الخطاب البلاغي، فحُسْنه تقويته بالمؤكدات المراعية لحال السامع. ويظهر لنا أن أنماط المؤكدات تستعمل في أغراض الخبر التي تكون بخلاف الظاهر؛ إذا أنزل المتكلم مخاطبه منزلة السائل المتردد، أو الشاكّ، أو المنكر على الرغم من أنه خالي الذهن تماماً من حكم الخبر.

فالمتردد والشاك في الحكم ليس متيقناً منه، فهو بين الرافض له، والقابل به؛ أو الراغب في بيان حقيقة بعكس المنكر الذي يكون أقرب إلى رفضه وعدم قبوله... ما يجعل المتكلم يتبع طريقة مغايرة في إلقاء الخبر إليه مغايرة للطريقة التي يتبعها فيما لو أنزله تلك المنزلة...

فالجملة الخبرية تتخذ أسلوباً جمالياً شفيفاً وجديداً ومتنوعاً بوساطة المؤكدات أو الشرح والتفصيل ليزيل المتكلم من نفس المخاطب التردد أو الشك... وهو أسلوب يعتمد على المخزون الشعوري الفياض والمتوتر.

فالمخاطب المتردد يمكن أن يلقى إليه الكلام بمؤكد واحد؛ أو بالشرح له؛ ومثله الشاك كقوله تعالى يخاطب فيه نوحاً (عليه السلام): ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا؛ إنهم مُغْرَقون﴾ (هود 11/ 37).

إنَّ جملة "إنهم مغرقون" جملة خبرية مؤكدة بالحرف (إن)... فالأصل أن تخرج وفق مقتضى الظاهر؛ وتكون (فهم مغرقون) لأن (نوحاً) خالي الذهن من

obeikandl.com

الحكم فيها، وكان يدور في خلده موقف نفسي آخر في الذين خاطب بهم ربه؛ في أن يغفر لهم وابنه منهم... لهذا خرجت جملة (إنهم...) بخلاف مقتضى الظاهر، وتقدم له الخبر لينتهي التردد الذي حصل في نفسه حول مصير القوم... واستعمل فيها مؤكداً واحداً.

وإذا اعتقد المتكلم بأن حيرة المخاطب قد ازدادت؛ ثم زاد ترددهُ في قبول الحكم ووصل إلى درجة الإنكار استعمل المتكلم في الخبر أكثر من مؤكد؛ كقوله تعالى في خطابه لإبراهيم (عليه السلام): ﴿فلما ذهب عن إبراهيمَ الرَّوْع، وجاءَتْه البُشرى؛ يجادلُنا في قوم لُوْط❖ إن إبراهيم لحَليمٌ أَوَّاه مُنِيْبٌ يا إبراهيم أَعرض عن هذا؛ إنه جاء أَمْر ربكَ؛ وإنهم آتيهم عَذابٌ غَيْرُ مردود﴾ (هود 11/ 74 ـ 76).

فإبراهيم (عليه السلام) -كما يدل عليه قوله تعالى -في موقف حيرة وتردد وتساؤل عن أمر القوم بعد جدال طويل فيهم... لأنه طامع في أن يُغْفَرَ لهم على علمه بذنوبهم... ما اقتضى الخطاب الإلهي أن يزيد المؤكدات لمناسبة مقتضى الحال والمقام النفسي له... وهو مقام مختلف عما رأيناه عند نوح من قبل... لهذا كله جيء بالمؤكد (إنَّ) ثلاث مرات؛ آخرها كان الإبرام فيها بالقرار (إنهم آتيهم...) ومن قبل استعمل حرف اللام مع (حليم) فقال (لحليم)...

ونؤكد مرة بعد مرة أن الحديث عن الجملة الخبرية –هنا -تتعلق بالمتكلم واعتقاده بما هو عليه المخاطب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وما أُبرّئ نفسي؛ إنَّ النَّفسَ لأَمَّارَةٌ بالسوء﴾ (يوسف 12/ 53) فيوسف يتساءل في نفسه على لسان أحد ما: لماذا تبرئ نفسك؟ وهو مقام استنكاري، لهذا استخدم (إن واللام)؛ ويوضح هذا تمام الآية "إلا ما رحم ربي" وسياقها في النص، وفيه ورد توكيدان لصدق يوسف، وإزالة الإنكار الذي يعتقد به فيه، حين قالت امرأة العزيز: ﴿وإنه لمن الصادقين﴾ (يوسف 12/ 51)، وحين قال يوسف: ﴿ذلك ليعلم أَني لم أَخُنْه بالغيب، وأنَّ اللّه لا يَهْدي كَيْدَ الخائنين، وما أُبَرِئُ نفسي﴾ (يوسف 12/ 52 ـ 53).

من هنا ثار السؤال حين تصور الآيات إنساناً ما يقول ليوسف: لماذا تبرئ نفسك...؟ لذلك عومل هذا الإنسان معاملة المنكر الجاحد إنكاراً قطعياً، لا متردداً؛ فألقي إليه الخبر على أنه مكتسب لحال غير قابلة بالكلام؛ أي: لمّا أحاطه بالإنكار الشديد المبرم استدعى الحكم في الجملة عدداً من المؤكدات مراعاة لمقتضى الحال... ومنها تتولد دلالات تخفي جملة من المكنونات النفسية والمعنوية البعيدة عند المتلقي قبل المتكلم؛ مما يضفي عليها طابعاً جمالياً ساحراً.

وقد أدرك البلاغيون والأدباء مدى جمالية هذا الأسلوب في الخطاب، وافتراقه من غيره؛ وهو أسلوب جارٍ على بلاغة كلام العرب[3]، إذ يجعل فيه المتكلم مجال الإيحاء متجاوزاً الانطباعات المباشرة.

وكل ما ذكرناه يوازيه صورة بلاغية تتعلق بالمخاطب ويُصنف في باب أضرب الخبر الابتدائية والطلبية والإنكارية، وسيتولى القسم الثاني بيان الأمر فيها.

ب. إنزال غير المنكر منزلة المنكر

يعامل المتكلمُ المخاطب على أنه خالي الذهن، ولكنه ينزله منزلة المُنْكِر إذا ظهر عليه شيء من الإنكار في تصرفه أو قوله على نحو ما علماً أنه لم يكن منكراً في الحقيقة.

لهذا يتخيل المتكلم مخاطباً ما منكراً لما سيلقي إليه من معلومة فيؤكد خبره إليه بعدد من المؤكدات تبعاً لحالة التصور الإنكاري ليثبت أن إمارات الشك والإنكار قد زالت... فالمؤكدات - بهذا الفهم - ليست ضرباً من الزخرف الخارجي؛ وإنما هي تشكيل لغوي وظيفي يتسربل بأسلوب جمالي بديع ندر وقوعه في غير لغتنا، وعليه قوله تعالى: ﴿ثم خلقنا النُّطْفة عَلَقة، فخلقنا العلقة مُضْغَة، فخلقنا المضْغة عظاماً، فكَسَونا العظام لحماً؛ ثم أَنْشأناه خَلْقاً آخر،

فتبارك الله أَحسنُ الخالقين❖ ثم إنكم بعد ذلك لميتون❖ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾

(المؤمنون 23/ 14 ـ 16).

وكيف نغفل الحديث عن جمالية النسق الحَرْفي المتدفق المثير الذي يصور الإنسان سادراً في غيّه؛ غافلاً عن ذِكْر ربِّه؛ متغابياً عن حقيقة البعث، وإن اعتقد بوجود الموت؟ ثم كيف نغفل عن التوازن في التركيب القائم على الفاصلة القرآنية المتناغمة والمنسجمة مع الدلالة؟ ثم إن النص ينزل المخاطب منزلة المنكِر، لذا أورد عدداً من المؤكدات بقوله تعالى: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ (إن ـ واللام ـ وميِّتون) بدل (يموتون).... ومن ثم قوله "ثم إنكم يومَ القيامة تُبعثون". فكرر الحرف (ثم) ليدل على طبيعة المهلة والتراخي بعد الموت ولكن البعث واقع، فجاء بالتوكيد (إنكم)... ومهما قيل في هذا الجانب فإننا نسأل: من ذا الذي ينكر حقيقة الموت والحياة؟ أما فيما يتعلق بيوم القيامة فله شأن آخر كما يستدل عليه من قوله تعالى: ﴿وأن الساعة آتية لاريب فيها﴾ (الكهف 21/18)

فطبيعة الجملة تقدم محاكمة عقلية وفق قياس يتغير لتغير حالة الشعور والموقف للمخاطب. ولعل زيادة عناصر الحجة والبرهان التي أوحت بها أدوات التوكيد منحت الجملة الخبرية طرافة وجمالية خاصة لم تكن لولاها.

ويذكر بعض كتب البلاغة قول حَجَلة بن نَضْلة القيسي (أحد شعراء الأصمعيات) في هذا المقام[4]:

جاءَ شقيقٌ عارضاً رُمْحَهُ إنَّ بَني عَمِّكَ فيهم رماحُ

فشقيق علا صهوة حصانه وجاء ساحة القوم، وقد عارض رمحه معارضة؛ مُدِلاً بشجاعته ومُظهراً شدة إعجابه بفروسيته وشخصه، اعتقاداً منه أن أي أحد من بني عمومته لا يجرؤ على مجابهته، فألقي إليه الخبر (إن بني عمك...) مؤكداً بـ "إن" ليزيل عنه علامات الإنكار والتوهم التي ظهرت في تصرفه

وتصوره.

وهذا يماثله قول الفرزدق حين مدح عبد الرحيم بن سليم الكلبي في قوله:

وإنا . وكَلْباً . إِخوةٌ، بيننا عُرىً من العَقْدِ قد شَدَّ القُوى مَنْ يُغيرُها

فالفرزدق يقف عند إرثه الثقافي والاجتماعي (تجربة الأحلاف بين القبائل) ليشيد بتجربة قومه في هذا؛ فيتخيل أقواماً ينكرون العلاقة الصادقة ببني كلب؛ وينزلهم منزلة المنكر، على الرغم من عدم وجودهم. ولهذا يستعمل المؤكدات (إنا... وقد...)؛ فالعلاقة بين الحيين متينة أحكم عقد صلاتها رجال حكماء أشداء... وكل بصير بالحقائق يكتشف أبعاد تلك الأخوة التي تغيب عن بال الناس العاديين.

ج . إنزال المنكر منزلة غير المنكر :

قد ينزل المتكلم المخاطب المنكر لأي حكم منزلة غير المنكر؛ ويخاطبه على أنه خالي الذهن بخلاف مقتضى الظاهر، ومقتضى الحال... ويرى أن هذا الأسلوب يجعله أكثر ارتداعاً عن إنكاره.

فالمتكلم في هذه الحال يلقي كلامه بلا توكيد، وإذا استدعى الخطاب توكيده فلا يزيد على مؤكد واحد من المؤكدات المعروفة لفظاً أو معنى... وعليه قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا رَيْبَ فيه هُدىً للمتقين﴾ (البقرة 2/ 2).

فالخطاب الإلهي ينزل الكفار المعاندين المستكبرين منزلة من هو خالي الذهن، وغير المنكر للقرآن الكريم؛ فأُلقي إليهم الكلام بلا توكيد، على خلاف الظاهر لعلهم يعودون إلى رشدهم ويهتدون به.

وهذا الأسلوب ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ (المؤمنون 23/ 16).

فالمؤمنون لا ينكرون يوم القيامة، ولكن الغافلين والكفار ينكرونه

لعدم وجود أدلته الظاهرة؛ فجاء الخطاب الإلهي ولم يكثر من التوكيد فأنزلهم منزلة من لا ينكر الخبر واستعمل الخبر واستعمل مؤكداً واحداً (إنكم) لعلهم يرتدعون عن إنكارهم... وقد يكون الدليل منبثقاً من سياق الكلام كقوله تعالى: ﴿له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ وربما يلقى المتكلم الكلام من دون أي دليل أو توكيد.

وعليه قوله تعالى: ﴿وإلهكم إلهٌ واحدٌ؛ لا إلهَ إلا هو الرحمن الرحيم﴾

(البقرة 2/ 163)

فالله ـ سبحانه ـ يخاطب منكري الوحدانية؛ ولكن الخطاب الإلهي أنزلهم منزلة من لا ينكر فلم يؤكد الخبر... وكذا نقول للكذاب: (الكذب حرام وبهتان وزور...) أو كقولنا للمسلم الشارب الخمر: (شرب الخمر حرام، وضَرَرُه كبير في الصحة والمال...).

وقد يتبادر لذهن المتعجل الناظر في هذا الأسلوب نتيجة شكله الخارجي أنه ألقي للمخاطب غير المتردد؛ فيحكم عليه حكماً سريعاً؛ أو يخطئ في استخراج معناه الحقيقي فتضيع جماليته المثيرة التي تتجسد في التضاد الضّمني؛ بما يقوم عليه السياق الإيحائي الذي يعتمد على حال المتلقي وثقافته النقدية والبلاغية. فالغرض منه ليس مطلق الإخبار كما هو في فائدة الخبر أو لازم الفائدة؛ بل غرضه تحريك النفس على حقيقة حال المخاطب بما انطوت عليه من إنكار شديد للحقيقة. ولّما انحرف الأسلوب اللغوي عن استخدام المؤكدات التي تلائم حال الشديد الإنكار قدَّم جمالية بلاغية لا نظير لها. فصياغة التجربة الجديدة تصدر من مشكاة تجربة المتكلم مع المخاطب ودرايته بأحواله. ولهذا كثف تجربته بهذا الأسلوب اللغوي الموجز والمعبر الذي ينتفع به المتلقي أكثر مما ينتفع من الأسلوب الخبري الآخر المشحون بالمؤكدات.

د . استعمال لفظ مكان لفظ بخلاف مقتضى الظاهر

توقف عدد من اللغويين والبلاغيين القدماء في تأملاتهم لآيات القرآن الكريم عند عدد غير قليل من الألفاظ التي استعمل الخطاب الإلهي بعضاً منها مكان بعض بخلاف مقتضى الظاهر مراعاة لمقتضى الحال للمتكلم أو المخاطب، أو الواقع الحقيقي أو الفني وفق الغرض المقصود إيصاله إلى المخاطب...

فقد ظهر عنوان (معاني القرآن) اسماً لعدد من الكتب التي تطرقت لذلك الباب؛ للفراء (ت 207هـ) والزجاج (ت 311هـ) والنحاس (ت 338 هـ)... كما عرض له ابن قتيبة (ت 276هـ) في كتابه (تأويل مشكل القرآن)؛ وابن فارس (ت 395هـ) في (الصاحبي)...

ولما لمس فيه هؤلاء الأفذاذ بعض الجوانب اللغوية الدلالية اتجه الزمخشري فيه اتجاهاً بلاغياً تحليلياً في الكلمة المفردة وفي الجملة، فاستحق كتابه (الكشاف) اسمه بكل جدارة.

ورأى هؤلاء وغيرهم أن اللفظ المثنى قد يراد به الواحد، وهو ما كان شائعاً عند العرب، وقد يراد باللفظ الواحد الجمع أو العكس... وربما يقع اللفظ الواحد مفرداً مرة وجمعاً مرة أخرى... أو يستعمل الفعل المضارع؛ ومقتضى الظاهر أن يكون ماضياً أو أمراً؛ والعكس صحيح... ولكل ذلك نكتة بلاغية على صعيد البنية اللغوية إيقاعاً وتصويراً يوحيان بفهم عميق وشعور متدفق بالموقف المعبَّر عنه.

فمن سَعة العربية (كما يقول الفراء) إطلاق لفظ الاثنين ويراد به الواحد كما في قول امرئ القيس:

خَليليَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدبِ نُقَضّي لُبَاناتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ

ثم قال معبراً عن عمق إحساسه بالموقف الوجداني الذي ألمَّ به حين أتاها ليلاً:

أَلمْ تَـرَ أَنـي كلمـا جِئْـتُ طارقـاً وجَـدْتُ بهـا طِيْبـاً وإِنْ لم تَطَيَّـبِ؟!

فرجع إلى الواحد وأول كلامه اثنان[5]. وجاء كلام الفرَّاء هذا في معرض التعليق على بعض آيات القرآن كقوله تعالى: ﴿يَخْرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ (الرحمن 55/ 22). إنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الماء المالح لا من العذب، ولكنه استعمل (منهما) في اللفظ مثنى وأراد به الواحد وهو الماء المالح... فهي جملة خبرية استعمل فيها لفظ المثنى مقام المفرد على حين استعمل اللفظ المفرد مكان الجمع الدال عليه لفظ (جميعاً) في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء﴾ (البقرة 2/ 29). ويقول الزجاج: "... والسماء لفظها لفظ الواحد، ومعناها معنى الجمع، والدليل على ذلك قوله عز وجل:

﴿فسواهن سبع سموات﴾... من الآية نفسها. وأيد ذلك بعدد من الجمل الخبرية التي خرجت عن مقتضى الظاهر، وإن خالفه الأخفش في بعض منها[6].

ويبدع الزَمخشري في هذا الاتجاه حين يتوقف عند قوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾ (المائدة ـ 5/ 55) فيقول: (فإن قلتَ: قد ذُكِرت جماعة فهلاّقيل: إنما أولياؤكم قلْتُ: أصل الكلام: إنما وليكم الله؛ فجُعلت الولاية لله على طريق الأصالة؛ ثم نظم في سلك في إثباتها لرسول الله (ﷺ) والمؤمنين على سبيل التَّبَع؛ ولو قيل: إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا، لم يكن في الكلام أصل وتبع"[7].

ومن التعليقات البلاغية الجميلة في مجال النظر والتطبيق ما جاء في حديثه عن الصلاة؛ مفردة، والصلوات، جمعاً في سورة المؤمنون: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ (المؤمنون 23/ 1). فالسياق اللفظي يقتضي أن يكون لفظ (الصلاة) مجموعاً للحديث عن المؤمنين؛ ولكنهم لَّما "وُصِفُوا بالخشوع في صلاتهم... وحِّدت ليُفاد الخشوع في جنس الصلاة؛ أي صلاة كانت" وأُرِيد بها الجميع على المعنى المراد في كل صلاة يؤديها المؤمنون... أما

لفظ (الصلوات) في قوله تعالى: ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ (المؤمنون 23/ 9) فقد جاء اللفظ موافقاً للجمع مع المؤمنين؛ لأنه أريد المحافظة على الصلوات الخمس "وألا يسهوا عنها، ويؤدوها في أوقاتها ويقيموا أركانها ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها؛ وبما ينبغي أن تتم به أوصافهم"[8].

وفي هذا المقام يمكن أن توضح الاكتشافات العلمية التي جرت على الإنسان فيزيولوجياً حقيقة الإعجاز اللغوي والبلاغي للنسق القرآني وتفرده من بقية الكلام المؤلف...

فقد جمع سبحانه وتعالى اللفظ المفرد والمجموع في قوله: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ (النحل 16/ 78).

فالشكر في دوامه يقود إلى الوعي بالشيء وفهم حقيقته من قبل المخاطب؛ كما يوضحه الفعل المضارع (يشكرون)، ثم تأتي الأداة (لعل) لتفيد الرجاء بدوام ذلك... أما إذا نظر البلاغي إلى استخدام كلمة (السمع) وجد أنها مفردة، على حين جاءت كلمة (الأَبصار والأفئدة) جمعاً... ويتساءل المرء: لم وقع ذلك؟ ويأتي الجواب من التأمل العلمي في مراكز الحواس والقلب... فمركز السمع واحد في الدماغ دون غيره؛ ولهذا ورد اللفظ بصيغة الإفراد؛ بينما مراكز الأبصار والأفئدة متعددة وغير محصورة في الدماغ، فعلم الفيزياء يقول: تتعدد البقع الضوئية لتمثل الصورة البصرية بوساطة العينين؛... وهذا يؤدي بالنتيجة لتعدد مراكز الفؤاد (القلب) المرتبط بالسمع والبصر معاً... فَضلاً عن اضطرام الأعصاب وتعددها في القلب؛ علماً أن الفؤاد في اللغة من الفَأَد وهو توقد النار[9]. ولا تضطرم الأفئدة إلا بعد تأثر مركز السمع في الدماغ والمراكز البصرية المتعددة.

وقد يسأل سائل: لماذا جاءت الألفاظ الثلاثة السابقة مفردة كلها؛ كما هو عليه قوله تعالى: ﴿ولا تَقفُ ما ليس لكَ به عِلْم؛ إنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ (الإسراء 17/ 36) وكلها قد جاءت مرتبة على

ترتيب واحد كما هو عليه الأمر في الآية السابقة؟!.

ونقول: إن المتأمل في السياق القرآني للنصين يلحظ بجلاء الفوارق البلاغية والمعنوية بين كل منهما. فالآية الثانية تتحدث عن (العلم) الذي يتم بالإدراك، والعلم أو الإدراك في اللفظ مفرد وليس جمعاً... والعلم يقع بالإدراك بطريق حاسة السمع وحاسة البصر؛ ثم يوكل إلى الفؤاد بما ينتج عنهما؛ لأنّه مركز عواطف المرء وأفكاره فرحاً وترحاً، رهباً وطمعاً... و... ويؤكده قوله تعالى: ﴿وأصبح فُؤَادُ أُمِّ موسى فارغاً﴾ (القصص 28/ 10). ولهذا نردُّ الفعل الغريزي للعلم بالشيء إلى الإدراك، وكلاهما مفرد في اللفظ، ولذلك جُعل الإفراد موجباً لهما في قوله تعالى: ﴿إن السَّمْعَ والبصر﴾. فالنقلة السريعة في الجملة من لفظ مفرد إلى غيره إنما هي نقلة نفسية وفكرية وفنية تكسر رتابة الإيقاع وجمالية النسق اللغوي المرتب على شكل واحد وهو الذي يرسِّخ في المتلقي أو السامع، أو المخاطب حقيقة ما يريد...

ويعدُّ استعمال فعل مكان فعل؛ أو فعل مكان اسم، أو العكس أو استعمال اسم مكان اسم بخلاف مقتضى الظاهر من أعظم الأمور البلاغية في القرآن الكريم وفي كلام العرب وكل ذلك يؤصل لمفاهيم جمالية ونقدية قل نظيره لدى الكثير من الأمم. ففي قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ويَصُدُّون عن سبيل الله﴾ (الحج 22/ 25) استعمل الفعل المضارع (يصدون) مع الماضي (كفروا) ومقتضى الظاهر أن يكون (صدوا)، وكذلك واقع القوم في حالتهم الراهنة؛ ولكن الفراء يقول: (الصّدُّ منهم كالدائم، فكأنك قلت: إن الذين كفروا من شأنهم الصَّدُّ)[10] على الدوام، ولن يتخلوا عنه.

لهذا اختير الفعل المضارع لإفادة الدوام والاستمرار بالصد بخلاف مقتضى الظاهر وليس على جهة التنويع في الكلام، أو على جهة أسلوب الالتفات الذي عرف لدى البلاغيين.

وقد يقتضي الظاهر استعمال فعل أمر مكان مضارع بيد أن المضارع هو

الذي استعمل مكان الأمر كقوله تعالى: ﴿والوالدات يُرْضِعْن أَولادَهُنَّ حَوْلين كاملين﴾ (البقرة 2/ 233). ويفسر لنا الزجاج هذه القضية فيقول: (اللفظ لفظ الخبر، والمعنى: الأمر، كما تقول: حسبك درهم؛ فلفظه لفظ الخبر، ومعناه: اكتفِ بدرهم؛ وكذلك معنى الآية: لترضع الوالدات).

وهذا يعني خروج اللفظ بخلاف مقتضى الظاهر...[11] وربما استعمل المضارع بمعنى اسم الفاعل على الحال كما في قوله تعالى: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾ (ص 38/ 18) فيكون بخلاف الظاهر...

يقول الزمخشري: "يسبحن بمعنى مسبّحات على الحال؛ فإن قلت: هل من فرق بين يسبّحن ومسبّحات؛ قلت: نعم، وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك؛ وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال؛ كأن السامع حاضر تلك الحال يسمعها تسبح". ومثله قول الأعشى:

لعَمْرِي لقَدْ لاحَتْ عُيونٌ كثيرةٌ إلى ضَوْءِ نارٍ في يَفَاعٍ تُحَرِّقُ

"ولو قال: محرقة؛ لم تكن شيئاً"[12].

وقد يقع اللفظ أياً كان بخلاف مقتضى الظاهر وتبعاً لتصور المتكلم لحال المخاطب؛ فقد يكون خبراً والمعنى بخلافه كأن يكون شرطاً وجزاءً كقوله تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتان فإمساكٌ بمعروف أو تَسْريحٌ بإحسان﴾ (البقرة 229/2)؛ أي مَنْ طلق امرأته مرتين فليمسكها بعد ذلك بمعروف أو عليه أن يفصم عرى الزوجية بإحسان[13].

هكذا تبينا أن خروج اللفظ عن مقتضى الظاهر وَفْق تصور المتكلم لحال المخاطب يعد أسلوباً رابعاً في خروج الخبر عن مقتضى الظاهر... وهو أسلوب بلاغي جمالي، ثم أسلوب نقدي يثير دلالات لا تنحصر ولا ينقدح الفهم فيها إلا لذوي السلائق الذين أُوتوا سَعَة في العلم وبَسْطة في معرفة القواعد الثابتة وغيرها... ولعل هذا يبرز امتلاك هؤلاء للذوق المرهف الذي تحتاج إليه الأغراض المجازية للخبر، وهي لا تتصل بمقتضى الظاهر أو بخلافه؛ كما يأتي.

ثالثاً ـ الأغراض المجازية وأساليبها:

إن الرؤية الجمالية البلاغية عند العرب ظلت مشدودة في تناسقها ووحدتها ووظيفتها إلى الرؤية الجزئية المجسدة في صورة الجملة، وفي أحسن الحالات في البيت وسياقه أو في عدد قليل من الأبيات. ولعل جمالية التساوق البلاغي لأغراض الخبر المجازية ترتبط بالهدف الذي يرمي إليه المتكلم من وراء الجملة الخبرية وإخراجها بصورة فنية مغايرة تماماً لما عرفناه من قبل. فهو لا يخرجها على مقتضى الظاهر كالفائدة ولازم الفائدة، ولا يخرجها بخلاف مقتضى الظاهر... وعلى المتلقي أن يستشف ذلك من السياق؛ ويلمحه في قرائن الأحوال بما يمتلكه من ذوق فني ورهافة حس. فالعلاقة الفنية بين أسلوب الجملة الخبرية ووظيفته وهدفه في الأغراض المجازية تشهد بالديباجة المثيرة المشرقة، والرونق البهي في السبك أياً كان وصفاً وبرهاناً وإيضاحاً موحياً... وهي كذلك تدل على نمو الروابط البنيوية بينها وبين الأشكال التعبيرية المتعددة التي تخدم سياق الهدف من الأسلوب المجازي الخبري... وبهذا تؤسس لعلاقة المتلقي بها في ضوء الارتباط النفسي والفكري في وقت واحد...

ومن هنا تتبع الوظائف التي تقدمها الجملة الخبرية وتقدم جماليتها في ضوء صلتها بالمخيلة الفنية للقائل وتمثل في الوقت نفسه روح العصر وثقافته... وكيف انتهت إلى أيدي البلاغيين فوضعوا لها المعايير البلاغية... فأجادوا تارة كما نراه عند عبد القاهر الجرجاني؛ وجمدوا قوالبها الفنية تارة أخرى حين أسسوا لها معايير ضابطة كما هي عند السكاكي؛ علماً أن الفن لا يتقيد بمعايير محددة وقوانين صارمة. وهذا عينه هو الذي توحيه الأغراض المجازية؛ التي يظن في بادئ الأمر أنها شديدة الشبه بخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر الذي رسمه البلاغيون.

ونبدأ بهذه الأغراض من آخر وجه في الأغراض السابقة لنلمح فيها المغايرة في الهدف والوسيلة.

1- **الأمر**:

هو صيغة من صيغ الإنشاء يطلب فيه المتكلم من المخاطب تنفيذ فعل ما على صفة الإيجاب في الفعل والتزام المخاطب به... وهو يفيد في الإنشاء طلب تنفيذ أمر بعد إلقائه؛ وكذلك هو في أسلوب الخبر؛ الذي ينزاح إلى فعل مضارع أو غيره... فإذا عُدل إلى المضارع رمى منه المتكلم إلى إلغاء الحدود الزمانية؛ إذ أصبح الأمر المجازي في الجملة الخبرية تجربة إنسانية مستمرة... وهذه هي الجمالية المثيرة له في انزياح التركيب اللغوي عمّا هو عليه كقوله تعالى: ﴿والوالداتُ يُرضِعْنَ أَولادَهُنَّ حَوْلين كاملين لِمَنْ أَراد أَنْ يُتمَّ الرَّضَاعة﴾ (البقرة 2/ 233). والمقصود (لترضع الوالدات أولادهن حولين كاملين...) وهذا يدل على أن الكلام لم يخرج بخلاف مقتضى الظاهر... وكذلك قوله تعالى: ﴿والمطلقاتُ يتربَّصْنَ بأنفسهنَّ ثلاثةَ قُروء﴾ (البقرة 2/ 228)؛ أي (فليتربَّصن). قال الزمخشري: "وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يُخبر عنه موجوداً. ونحوه قولهم في الدعاء: (رحمك الله)؛ أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة كأنما وجدت الرحمة عنها؛ وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فَضْلُ تأكيدٍ؛ ولو قيل: ويتربص المطلقات لم يكن بتلك الوكادة"[14]. فالسياق البلاغي نقل الفعل المضارع الذي يفيد الزمن الحضوري إلى الزمن المطلق لكل امرأة ذات ولد... إنه أمرٌ لها بما ينبغي أن تفعله في كل زمان ومكان... وهذه هي الجمالية البديعة.

2 ـ **النهي**:

هذا أيضاً أسلوب آخر من أساليب الإنشاء؛ ويُطْلب فيه الكف عن أمرٍ ما؛ ولكنه إذا استعمل في الجملة الخبرية فإنه يحمل إثارة خاصة بالاستعمال اللغوي المغاير... فالدلالة تنبثق من زاوية الرؤية البعيدة المقترنة بالسياق، وما تنتهي إليه من وظائف وغايات.

وعليه قوله تعالى: ﴿لا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرُون﴾ (الواقعة 56/ 79)؛ والصفة راجعة إلى القرآن الكريم وإلى من يمسك به ويتدبره؛ فالمعنى "لا ينبغي أن يَمَسَّه إلا ما هو على الطهارة من الناس؛ يعني مس المكتوب منه؛ ومن الناس من حمله على القراءة أيضاً"[15].

من هنا ظهرت الأهداف من وراء النَّهي في أسلوب الجملة الخبرية "ونحوه قول رسول الله ﷺ: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه؛ أي لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه"[16]، ولو جاء على الأصل لقال: لا تظلم أخاك المسلم ولا تسلمه إلى العدو.

فالجملة بما بنيت عليه من مسند ومسند إليه كانت مليئة بالرموز والإشارات لهذا اكتفت بالقليل من الروابط الموحية لسياق النَّهي... وهو سياق لم يكتف بإنارة العقل وتعليمه كيفية التعامل مع القرآن الكريم؛ أو كيفية تعامل الناس بعضهم مع بعض؛ وإنما أرسى في بنيته إثارة للانفعال النفسي إذا لم يكن صاحبه كذلك. فالانحراف في الأسلوب الخبري لم يكن تحولاً عارضاً أو معيارياً بل هو انزياح بلاغي تصويري لحالات النفس التي تختزن عواطف شتى يستجيب لها المخاطب بكل جوارحه.

3- التمني:

يتقدم الأسلوب الخبري خطوة أخرى حين يخرج الكلام إلى أحد أساليب الإنشاء؛ فالتمني طلب أمر ما على جهة الرغبة في حصوله وإن كان وقوعه ممتنعاً إما لاستحالته، وإما لبعد وقوعه... وتفيد الجملة الخبرية بهذا المقام وكأن التمني قريب من الحدوث. ولهذا لا يُكْتَفى باستعمال فعل (وَدَّ) وصيغه، وهي مما يكثر في هذا المجال ولكن تستعمل ألفاظ أخرى فيها دلالة إمكان حدوث الفعل، كقولنا: أطمع ربِّ أن تغفر لي؛ وكقوله تعالى: ﴿ونطمع أن يُدْخلنَا رَبُّنا مع القوم الصالحين﴾ (المائدة 5/ 84).

إنهم يطمعون في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين... على وجه التمنّي،

obeikandl.com

ولكنه لن يكون.

وترتبط الرغبة في شيء ما بالدعاء كما هو قول ساعدة بن جُؤَيَّة:

أَلاَ قالَتْ أمامَةُ إِذْ رأَتْني لِشَانِئِكَ الضَّرَاعةُ والكُلُولُ

فهذه المرأة تمنت أن يصاب كل من يبغض ساعدة بالمصائب والدواهي، والتصاغر...

ويظل فعل (ودَّ) أكثر استعمالاً في هذا المقام كقولنا: (وددت أن تأتي)؛ وقال تعالى: ﴿تودُّون أن غيرَ ذاتِ الشَّوْكة تكون لكم﴾ (الأنفال 8/ 7) قال الزمخشري: "تتمنون أن تكون لكم العِيْر لأنها الطائفة التي لا حِدَّة لها ولا شدة، ولا تريدون الطائفة الأخرى"[17]، المجهزة بالرجال والسلاح.

فالجمالية البلاغية في الجملة الخبرية التي تهدف إلى التمني تكمن في الخيال الرحب الذي تختزنه؛ وفي التصور النفسي الذي تحتفظ به.

4 ـ النفي:

النفي أحد أساليب الإنشاء غير الطلبي؛ ويفيد إخراج الفعل من صفة الحدوث؛ لأن الحدوث إيجاب على صفة الإطلاق... ولكن النفي يفيد اتجاهاً جمالياً مثيراً إذا استعمل في الجملة الخبرية، وقد أبدع عبد القاهر الجرجاني في الحديث عن ذلك حين تعرض لبعض الآيات القرآنية التي تفيد النفي الضمني كقوله تعالى: ﴿إنَّما يتذكر أولو الألباب﴾ (الرعد 13/ 19). فهذا "التعريض إنما وقع بأن كان من شأن (إنما) أن تضمِّن الكلام معنى النفي من بعد الإثبات، والتصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل"[18]، وعليه قولنا: "إنما أنت حالم"، وعكسه قوله (ما المستشير بنادم)، ومثله قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ (آل عمران 3/ 144)، فالغرض "من بعثة الرسل تبليغ الرسالة وإلزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه"[19]، ولهذا جاء النفي ثم نُقض بالحصر فأفاد الإثبات وتأكيد المعنى المجازي للجملة الخبرية، وعليه قوله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأنَّ الله ليس بظلام للعبيد﴾ (آل عمران 3/

obeikandl.com

182) فقد يقول قائل: لِمَ عطف كلاماً منفياً على كلام مثبت؟! "قلت: معنى كونه غير ظلام للعبيد أنه عادل عليهم"[20]، فالمضمون والهدف من النفي إنما هو للإثبات، وشبيه به في الأسلوب ما قاله المتنبي:

وما كُلُّ هاوٍ للجميلِ بفَاعلٍ ولا كُلُّ فَعَّالٍ لـه بمُتَمِّم

والمعنى: (ليس كل مَنْ أحبَّ الأمر الجميل يصنعه، ولا كل من يصنعه يتممه)... فالسياق في الجملة خبري؛ يوحي بالإثبات؛ بيد أن المراد منه هو النفي.

5- الدعاء:

هذا أسلوب آخر من أساليب الإنشاء ـ والدعاء ـ كما قلنا: النداء؛ ولكنه يستعمل في صيغة الخبر، وله أشكال عدة، فهو مع الله تضّرع وابتهال و... كقولنا: رحمك الله؛ وعفا الله عنك؛ وأرشدك الله؛ أي زادك رُشْداً، وعليه قول كعب بن زهير في مدح الرسول الكريم:

مَهْلاً هَدَاكَ الذي أعطاكَ نافلةَ القرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ

وعليه قوله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿إيَّاكَ نَعْبد، وإيَّاكَ نَسْتَعين﴾ (الفاتحة 1/ 5) أي (أَعِنَّا دائماً على عبادتك، واستمرار العون في طاعتك...) وإذا توجه المتكلم بالدعاء إلى الممدوح فهو يرجو له البقاء أو دوام الصحة؛ وقد يدعو له بألا يأتيه شيء يسيئه... ويستحق ذلك فهو لم يفعل شيئاً يُذمّ عليه كما في الدعاء المشهور (أبيتَ اللعن)؛ وعليه مدح النابغة للنُعْمان بن المنذر:

أَتاني ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ أَنَّكَ لُمْتني وتلكَ الَّتي أَهْتمُّ منها وأَنْصَبُ

فإذا كانت الجملة في رأي عدد من العلماء شرقاً وغرباً هي أصغر وحدة مفيدة بنفسها للخطاب[21] فإن الجملة الدعائية التي وردت في ذلك كله مثل (أبيت اللعن، رحمك الله... أبقاك الله؛ حفظك الله...) ترتسم فيها ملامح الجمال المثير بهذا التركيب الموجز، فضلاً عن سماتها البلاغية الموحية والمعبرة عن وظيفة نفسية وحاجة اجتماعية... فهي تموج بشحنة عاطفية عالية تقوم على

الابتهال والاستعطاف... فالممارسة الاجتماعية والدينية صورة متضمنة في النسق الدعائي. فأسلوب الدعاء في الجملة الخبرية يقدم وظائف متنوعة كتنوع أنماطه، ولو ظهر أحادي النمط بصفته تركيباً موجزاً... فالتفصيل والتوضيح الذي خرج إليه كعب بن زهير في تفسير ماهية الدعاء أخرجه عن نمطية الجملة القصيرة التي يؤثرها أسلوب الدعاء؛ أياً كانت طريقته إنشاءً أم خبراً، وذلك ما نراه أيضاً في أسلوب التعظيم والتنزيه، والتعظيم جعل الشيء أو الإنسان عظيماً، والتنزيه جعلهما نزيهاً؛ أي طاهراً ومبرأً من كل إثم أو عيب أو قبيح...

6- التعظيم والتنزيه:

يعدُّ المستوى اللغوي والتركيبي غنياً بمجالات دلالية مثيرة؛ ما جعل البلاغيين يتأملون أسلوب الخبر بصفته البلاغية قبل أن يكون صورة لغوية أو نحوية، وبهذا كانوا يرون التركيب مستوىً أول، وهو ركيزتهم إلى مستوى أعلى يرتقي المتلقي بفهمه واستيعابه إلى إدراك جماليات كبرى. فالمجال البلاغي أوسع بكثير من المجال اللغوي والنحوي؛ لِمَا ينطوي عليه من معارف وإشارات بعيدة كالتعظيم والتنزيه في الأسلوب الخبري.

ولذا نرى أن الممدوح صاحب المنزلة الخاصة يمكن أن يبجَّل ويكرم على الحقيقة؛ كأن نخاطب سيداً أخطأ عبده بحقّه: (أنت أرفع من أن تنزل إلى مستوى عبدٍ ذليل)؛ ولكن هذا الأسلوب غير بديع؛ وليس فيه قيمة جمالية... ولهذا يخرج الأسلوب الخبري في التعظيم إلى صور جمالية عند المتكلم على نحو من الأنحاء؛ كما نراه عند الكثير من الشعراء المادحين قديماً وحديثاً؛ ليخلق في النفس العديد من الانفعالات؛ ويثير فيها التأمل؛ ولو بالغ صاحبه فيه؛ كقول الأعشى يفتخر بقومه[22]:

إنّي امرُؤٌ من عُصْبةٍ قَيْسيَّةٍ ... شُمِّ الأُنوف؛ غَرانِقٍ أحشادِ

الواطئين على صُدور نِعالِهمْ ... يمشون في الدَّفَنيِّ والأَبْرادِ

والضـامنين بقـومهم يـومَ الـوَغى للحَمْـد يـوم تنـازلٍ وطِـرادِ

كـم فـيهم مـن فـارسٍ يـوم الـوغى ثَقْـفِ اليـدين يُهِـلُّ بالإقصـادِ

فهذه صورة من التفاخر تدل على تعظيم أفراد قومه وتبالغ في ذلك التمجيد من تعداد مآثرهم مستعملاً الجملة الخبرية التي تفيد التقرير والتأكيد... وكذلك وجدنا هذا الأسلوب فعّالاً في مدح النابغة الذبياني للغساسنة؛ حيث يقول:

مَحَلَّـتُهُم ذاتُ الإلـه ودِينُهُمْ قَـويمٌ؛ فما يَرْجونَ غَيْرَ العَواقبِ

فقد وصفهم وصفاً رفيعاً يشي بمدى تمسكهم بطاعة الله والدفاع عن دينه لا يرجون سبيلاً غير ذلك...

هكذا رأينا أن التعظيم في الناس قد يدخله التكلف والتنزيه الزائف؛ ولكنه إذا جاء في أسلوب خبري موجه إلى الله أدَّى معنى التنزيه والتطهر من أدران الدنيا حقاً؛ وصار التوجه إلى تعظيم الخالق وإجلاله دافِعاً شخصياً ذاتياً لا علاقة له بالدافع الاجتماعي، أو النفعي الذي يحرك الناس كما مثَّلنا له سابقاً، إنه يختلف عن قولنا: (سبحان الله؛ الحمد لله؛ الشكر لله؛ ولك الحمد كما ينبغي لوجهك الكريم... ولكَ العُتْبى حتى ترضى...) فهنا نجد أدعية ابتهالية قائمة على تعظيم الإله؛ وعليه قوله تعالى: ﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ (الأنبياء 21/ 22). فهذه الجملة تنزه الله سبحانه عن وصف المشركين له؛ حين جعلوا له شركاء من الأصنام، وكقوله: ﴿إن الله اصطفاكِ وطَهَّرَكِ واصطفاكِ على نساءِ العالمين﴾

(آل عمران: 3/ 42).

فالله سبحانه اختص مريم بالكرامة السنية ونزهها عن الأفعال القذرة التي كان اليهود يقترفونها، وطهرها منها جميعاً. ومثل هذا نجده في قوله تعالى في وصف مكانة القرآن الكريم وقيمته: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي

obeikandl.com

أقوم﴾

وفي ضوء ما تقدم ندرك أن المستوى التركيبي اللغوي يختزن دلالات كثيرة؛ ولكن إثارته لا تكمن فقط في نظام كلماته؛ ومضمُونها، وإنما فيما ترسيه في أنفسنا من مواقف إنسانية جوهرية ترتفع بالنفس عن الدنايا والشر، ولا سيما حين تصوّر المثال الإنساني النقي. وبهذا يصبح التشكيل البلاغي الجمالي وسيلة إلى استخراج الباطن من عملية التصوير؛ وهذا ما نراه فيما يأتي.

7- **الوَعْد**:

كلمة الوَعْد بنظام حروفها ليست مجرد علامة لغوية؛ وإنّما تمتلك في بنيتها طاقة كبيرة من المدركات والمعارف؛ لأنها استخدمت في الخَيْر؛ فتحوّلت ـ غالباً ـ عن التهديد والشر إلى الخير. فزيادة حرف الياء في كلمة (الوعد) ينقلها من مفهوم إلى آخر... ولهذا فالوعد تختلف دلالة عن الوعيد.

والوعد من المصادر المجموعة؛ وفعله وَعَد، يَعِد؛ ومثله المصدر (عِدَة) كقول الشاعر:

إن الخليطَ أَجَدُّوا البَيْنَ فانجردوا وأخلفوك عِدَى الأَمْرِ الذي وَعَدوا

فالشاعر كان ينتظر خيراً يرجوه في لقائه بأحبَّته، ولكنهم أَخلفوا ما وعدوه به... وساق هذا التفصيل في سياق خبري لافت للنظر... وموحٍ بصور جمالية مؤثرة.

ولم تقف الجملة الخبرية عند استعمال ألفاظ الوعد وإنما استعملت جملة من الألفاظ الحاملة لدلالته، ولا سيما ما يرتبط بحرفي (السين) و(سوف)... ومالت اللغة إلى استعمال (السين) بالوعد، و(سوف) بالوعيد؛ بيد أن القرآن الكريم استخدمهما في الوعيد والوعد على السواء.

وبهذا أكد كثافة ما يختزنه الحرف من شحنة عاطفية وفكرية يوضحها السياق، ما يؤكد لنا أن الرؤية الجمالية للكلمة تخلق تصوراً لا

متناهياً في التركيب اللغوي والسياقي... وعليه قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ (الضحى 93/ 5). فكلمة (سوف) في سياقها أفادت الرجاء والوعد المنتظر من الله لرسوله؛ وهو انتصار في الدنيا على الكافرين، وفوز له وللمؤمنين في الآخرة بجنات النعيم... وعليه قوله تعالى: ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ (النساء 4/ 114).

وقوله: ﴿وسوف يؤتِ الله المؤمنين أَجْراً عظيماً﴾ (النساء 4/ 146). وكذلك استخدمت (السين) في قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أَنفسهم حتى يتبيَّنَ لهم أنَّه الحقُّ﴾ (فصلت: 41/ 53). قال الزمخشري: "يعني ما يُسِرّ الله (عَزَّ وَجَلَّ) لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده ونُصّار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً وفي باحة العرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم"[23].

8- الوعيد:

هذا غرض شديد الالتصاق بالسابق ولكنه يقوم على التَّضاد معه في الدلالة على اشتقاقهما من مادة واحدة وهي الوعد؛ ولكنه تحوّل عنها إلي الوعيد؛ وفعْله أَوْعَد، يُوعِدُ.

وقد ترك علم اللغة القديم والحديث صوراً بديعة في تعرف بناء الكلمات، وما تقوم عليه من معارف وتجارب انتهت إلى نظام بلاغي مثير. فالوجود اللغوي ليس مجرد كلام طارئ وإنما هو دلالة في ذاته على تغير بنيته... وهذا ما تفيده كلمة (الوعيد). فزيادة حرف على كلمة (الوعد) نقلها من الخير إلى الشر، وصارت تستعمل للإنذار والتهديد بالشر؛ ومثلها التوعّد والإيعاد. وبهذا لم تكتف الكلمة بأن تكون مجرد علامة لغوية كما يقول أصحاب اللسانيات الحديثة، ما يجعلها مادة لينة بيد المفسرين... وبمعنى آخر قد تغدو نظاماً مفتوحاً فوضوياً بيد المتلقي يتصرف فيه كما يشاء... ما يَعْني أن نُلغي منه صورة التجربة الذاتية والاجتماعية، ومن ثم صورة السياق التي تقوم عليه،

obeikandi.com

وهذا ما تحققه الجمل الخبرية التي ساقها النابغة الذبياني حين حدثنا عن تجربته مع النعمان بن المنذر ـ وهي تجربة حقيقية ـ ومما قاله فيها:

وقَدْ حَال هَمٌّ دونَ ذلك شاغلٌ مكانَ الشِّغَاف تبتغيه الأصابعُ

وعيدُ أبي قابوس في غير كُنْهه أتاني ودوني راكِسٌ فالضَواجعُ

فالنابغة يصور الهَمَّ الذي داخله وشغله عن ذكر الأحبة؛ وهو داء عضال أخذ بشراسيف ضلوعه، وجماع قلبه... وهذا الهم ليس إلا رمزاً لوعيد النعمان للنابغة وتهديده بالويل والثبور.

ومرة أخرى نقول: إن الوعيد استعمل في التهديد، وفعله أَوعَد، ومصدره الإيعاد؛ ولا يعني هذا أنه حُصِرَ به؛ فقد يستعمل في الخير، مثلما يستعمل (وعد) في الشر؛ وإن كان ذلك قليلاً في لغة العرب[24]، ولم تقتصر الجملة على استخدام ذلك المعنى فقط في هذا المجال فإن القرآن الكريم والشعر استعملا (السين) و(سوف) وألفاظاً أخرى في معناه. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فسوف نُصْليه ناراً﴾ (النساء 4/ 30) فكل من ينحرف عن جادة الحق مصيره إلى النار... وحين استعملت كلمة (سوف) ظن الإنسان الظالم أنه بمنجى من العقاب؛ فإذا بالسياق يؤكد العقاب ونوعه... لهذا جاءت (سوف) متضمنة أفعال الشر التي قام بها ويقوم ليكون مآله إلى النار... فالتوعد والتهديد جاء في إطار التراخي في المهلة وكذلك قوله: ﴿فسوف يأتيهم أنباءُ مَا كانوا به يَسْتهزئون﴾ (الأنعام 6/ 5). فالمكذبون بما أنزل الله وإعراضهم عنه ليس بالشيء الهين؛ وكذلك استهزاؤهم به... لهذا ينذرهم بعقاب شديد يوم القيامة؛ فضلاً عن إرسال العذاب عليهم في الدنيا... حين ينتصر الإسلام....

وهذا المعنى من التوعد والتهديد تفيده (السين) وهو أقرب في التحقق الزمني مما عليه بناء (سوف) كقوله تعالى: ﴿وسَيَعْلم الذين ظَلَموا أيَّ مُنْقلب يَنقلبون﴾ (الشعراء 26/ 227). فالظلم هو الكفر بما أنزل الله، ولذلك ختم به الله سبحانه سورة الشعراء. وقال الزمخشري: "ختم السورة بآية ناطقة بما لا

شيء أهيب منه وأَهْول، ولا أَنكى لقلوب المتأملين، ولا أَصدع لأكباد المتدبرين؛ وذلك قوله (وسيعلم) وما فيه من الوعيد البليغ"[25]. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ على الخُرطوم﴾ (القلم 68/ 16)... فالكافر المعاند الذي تتلى عليه آيات الله ينعتها بأنها أساطير الأولين، ويشمخ بأنفه وكأنه لا يأبه بالرسالة، فهو يملك المال والبنين... لذلك جاء التوعد بالسين لأنه أَلصق بالكلمة، والتصاق السين تركيباً بها دَلَّ على أثرها... في الإذلال "فعبَّر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة لأن السِّمَة على الوجه شَيْنٌ وأَذالَةٌ؛ فكيف بها على أكرم موضع منه"[26].

بهذا كله دلت البُنى البلاغية في الجملة الخبرية على أنها ذات وظيفة متنوعة تستهدف فعّالية عظيمة في ذاتها وفي سياقها النفسي والاجتماعي والفكري والديني... ويصبح التغير الأسلوبي البلاغي موازياً للسياق إن لم يكن أبعد أثراً... ولهذا قيل: إذا استعمل الفعل (أوعد) مع الباء اختص بالشر دون الخير دائماً كقولنا: أوعدني بالسَّجْن، وإذا خلا من الباء جاز استعماله للخير؛ وإن كان استعماله للشر أكثر كقول الشاعر:

يَبْسُطني مرَّةً؛ ويُوْعدني فضلاً طريفاً إلى أَياديهِ

9- الإنكار:

الإنكار هو الجحود؛ والتجاهل بالشيء وعدم المعرفة به؛ والفعل أنكر يُنْكر... وقد يحمل معنى الشجب والتنديد. لذا فإن الاعتداد بالمظهر التركيبي وحده إن لم تحلل مكوناته؛ قد يخدع المرء، ولن يستطيع أن يصل إلى كنه ما يعبّر عنه. ونحن إذ نشدد على النَّمط الدلالي باعتبار بناء الجملة فإننا لا نهمل ما يسمى بالتوسع الدلالي للجملة؛ وهو ما بحثت عنه البلاغة العربية... فالوقوف عند ظاهر الجملة الخبرية في كثير من الحالات قد يضلل القارئ... لأنها ذات إيحاءات متنوعة كما هو عليه قوله تعالى: ﴿إني لكم رسولٌ أَمينٌ﴾ (الشعراء 26/ 125 و143 و16 و 178). فباستعمال (إني) يصطدم المتلقي بالخبر ويفيده أن

المتكلم أراد إثباته لرسالته وأنه مبعوث من قبل رب العالمين وهو أسلوب يشدد على حال المخاطب (القوم) فإنكاره أنه رسول... ثم جاء السياق بكلمة (أمين) لتدل على ذلك الإنكار وإثبات صدقه فيما عهدوه عليه... أما السياق العام للآية فهو في معرض تكذيب الأمم للأنبياء وإنكارهم أنهم رسلُ رَبّ العرش العظيم... لهذا أراد (هود) أن يدحض إنكارهم بهذه الجملة الخبرية التي تثبت صدقه... ثم ظهرت مرة أخرى في السورة نفسها (الآية 144) على لسان صالح المرسل إلى ثمود، كما ظهرت على لسان النبي (لوط) في (الآية 162) وعلى لسان (شعيب) في (الآية 178).

ومن قرأ الآية التي جاءت في إحدى وصايا (لقمان) لابنه أدرك أن الإنكار لم يأت لصفة الصوت في الحيوان الذي ضُرب به المثل في النكارة وهو صوت الحمار: ﴿واغْضُضْ من صوتِكَ؛ إن أنكر الأصواتِ لصَوْتُ الحمير﴾(لقمان 31/ 19). فجملة: (إن أنكر...) جملة خبرية ترمي إلى إنكار رفع الصوت في بعض الحالات غير المؤاتية نفسياً ومكانياً لرفع الصوت.

قال الزمخشري: "فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنُّهاق؛ ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مَخْرج الاستعارة، وأن جعلوا حميراً وصوتهم نُهاقاً مبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت؛ والترغيب عنه، وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان"[27] بحيث يبلغ حدَّ التبكيت الذي سنتحدث عنه بعد قليل، ويماثل ذلك إنكار الشاعر لفعل صاحبه الذي يدعي صحبته بينما فعله معاكس:

تــودُّ عــدوّي؛ ثــم تــزعمُ أنَّــني صَديقُك!! إنَّ الرأيَ منكَ لعازبُ

ولـيس أَخـي مَـنْ ودَّنـي رَأْيَ عينِـهِ ولكـنْ أخـي مَـنْ ودَّنـي وهـو غائـبُ

فالهدف في الجملة الخبرية لا يتعلق بالتركيب البسيط للمسند والمسند إليه ومتمماتهما؛ وإنما ينطلق من الكيفية بشرح ما يعتمل في نفس الشاعر نحو صديقه؛ واستنكاره لفعله غير السوي الذي يتولد من اللوحة الكاملة لسياق

الجمل الخبرية...

10- التبكيت:

هو التأنيب؛ والتثريب؛ وهو أعلى مقاماً من العَذْل؛ والتقريع والتوبيخ اللاذع. إنه نمط من الاستنكار الشديد إلى حد المبالغة في الاستهجان وتقبيح فعل مَنْ يدل عليه مضمُون الجملة الخبرية؛ كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ؛ إنَّكَ أَنْتَ العزيزُ الكريم، إنَّ هذا ما كنتم بهِ تَمْتَرون﴾ (الدخان 44/ 49 ـ 50). فأبو جَهْل وأمثاله من المشركين كانوا يرون أنفسهم أَعزَّة بكفرهم، وكانوا يتعالون بمنزلتهم على قومهم... وينكرون الرسالة ويتهكمون بالرسول الكريم... من هنا جاءت الجملة الخبرية لتنكر عليهم ذلك؛ وتسخر منهم وتبكّت عملهم. وعليه قوله تعالى: ﴿ومهَّدْتُ له تَمْهيداً، ثم يطمعُ أن أَزيدَ، كَلاَّ إنه كان لآياتنا عَنيداً﴾ (المدثر 74/ 14 ـ 16). في هذه الجمل الخبرية يتحدث الله سبحانه عن الوليد بن المغيرة وكان من وجهاء قريش؛ فبسط الله له الجاه العريض والرياسة في قومه، ويطمع بالمزيد... قال الزمخشري: "ثم يطمع؛ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه: يعني أنه لا مزيد على ما أُوتي سعة وكثرة... إنه كان... تعليل للردع على وجه الاستئناف" ثم تأتي الآية السابعة عشرة "سَأُرهقُهُ صَعُوداً"؛ أي إنه سيكون من أهل النار؛ وتكون كلمة رَدْعٍ أخرى "رداً لزعمه أن الجنة لم تخلق إلا له، وإخباراً بأنه من أشد أهل النار عذاباً، ويعلل ذلك بعناده"[28].

فطبيعة العالم المرئي أشارت بوضوح إلى طبيعة العالم غير المرئي في إطار بلاغي مجازي مثير.

11- التوبيخ :

التوبيخ ذم الآخر والنَّيل منه والتشنيع عليه؛ والفعل: وبَّخ يوبّخ... فهو أعلى درجة من التقريع والتعنيف؛ فهو إيجاع في العتاب واستقصاء فيه حتى يصل إلى مرتبة التأنيب اللاذع للمرء ومن ثم ازدراء فعله أو سلوكه القبيح... ولكنه لا

يماثل الإنكار ولا التبكيت؛ وإن التقى معهما في بعض المعاني... والدليل على ما نذهب إليه أننا نقول للمؤمن الغافل عن الصلاة: (الصلاة خير من العبث واللهو والنوم..) فإننا نلومه على إهماله للصلاة؛ وعدم مواظبته عليها؛ أما من تركها بشكل دائم؛ فإننا نقول له: (الصلاة ركن من أركان الدين...) فنحن نوبّخهُ على تهاونه في إقامة دعامة من دعائم الدين.

وإذا أردنا عدم مراعاة الحالة النفسية للمخاطب أو منزلته وكان من صفاته الكذب فإننا نوبخه مصرحين بفعله فنقول: (الكذب إثم وزور وبهتان..) وإن لم نقل له: أنت كذاب... ومن هنا يظهر الفرق بين نمطي الجملة الخبرية؛ فالجملة الأولى: (الكذب إثم...) توحي بغرض مجازي هو التوبيخ؛ والجملة الثانية: (أنت كذاب) تؤكد خبراً وتثبته على جهة الحقيقة.

ونستدل على صورة الإيحاء بالتوبيخ ما ورد في قوله تعالى في صفة الكافرين: ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ (آل عمران 3/ 176). فالآية توبخهم على فعلهم؛ فهم "لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، وما وبال ذلك عائداً على غيرهم"[29].

12. التحذير:

التحذير هو التخويف والتهديد بالشر، والفعل: حَذَّر يُحذِّر تحذيراً؛ وهو يخالف أسلوب التحذير في اللغة، الذي يعني التحذير من الوقوع في الشيء بأسلوب محدد كقولنا: إياك من الغلط.

ومن هنا ندرك قيمة هذا الأسلوب، فهو من أطرف الأغراض المجازية للجملة الخبرية في انزياح الأسلوب البلاغي عن وجوهه اللغوية العديدة؛ كقوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان؛ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ (البقرة 228/2). فالتطليق حكم شرعي واحذر أن تطلق مرتين لأنه لن يكون لك بعدها إلا خيار واحد إما الإمساك بحسن العشرة وإما التسريح الجميل؛ فلا رجعة بعد الثالثة، ومن التحذير مع الترغيب قوله تعالى: ﴿إنَّ الذين يَغضُّون

أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبَهم للتقوى﴾ (الحجرات 49/ 3). فصفة خَفْض الصوت في مجلس النبي؛ أو عند ندائه من وراء حجرات صفة الأتقياء، وهذا يعني أن الآية لا تتوقف عند هذا الإخبار وإنما توحي بغرض آخر وهو التحذير من رفع الصوت في مثل هذا الموقف والنهي عنه، والترغيب في خفضه.

13. **الضعف والعَجْز:**

الضَّعْف نقيض القوة والقدرة، ضَعُف يَضْعُف... ومثله العَجز: نقيض الحَزْم؛ عَجَزَ عن الأمر يَعْجِزُ: لم يقدر عليه... وأَعْجَزه: صَيَّره عاجزاً.

ولعل كثيراً من صيغ الأساليب المجازية مستمدة من اللغة، وهي تفسر القيمة الفنية التي تستجيب لنفس المتكلم باعتبار الأسلوب فناً بلاغياً جميلاً؛ وقد يكون تصويراً لغيره؛ وعلى ذلك قوله تعالى على لسان زكريا: ﴿رَبِّ إني وَهَنَ العظم منِّي واشتعلَ الرأس شيباً﴾ (مريم 19/ 4) ويقول الشاعر وقد أظهر عجزه وضعف جسمه، ويدعو للمخاطب ألا يصاب بما أصيب به:

إنَّ الثمـــانينَ – وبُلِّغْتَهـــا – قَـدْ أَحْوَجَـتْ سَـمْعي إلى تَرْجُمـانِ

أما ساعدة بن جؤية فيصف لنا نسوة عاجزات باكيات يرفلن بأثواب مهترئة بعد أن كن يلبسن البرود اليمنية... فحالة الضَّعْف ليست في القدرة الجسدية وإنما في الحالة النفسية:

يَذْرينَ دَمْعاً على الأشفارِ مُنْحَدراً يَـرْفُلْنَ بعد ثياب الخَالِ في الرُّدَمِ

أما المتنبي فإنه يحدثنا عن حالة من الضعف النفسي والجسمي نتيجة مرض أصابه فيقول:

أَقَمْـتُ بـأرض مصـرَ فـلا ورائـي تَخُـبُّ بـيَ الركـابُ ولا أَمـامي

ومَلَّـنيَ الفـراشُ وكـان جـنبي يمـــلُّ لقـــاءَه في كُـــلِّ عـــام

ويظل بكاء الشباب يمثل صورة العجز والضَّعف في الشيخوخة وهو من

أبرز المعاني التي يقررها الشعراء بأساليبهم الخبرية الموحية، وقد صوَّروا لنا ملامح هذه الشيخوخة بما تحمل فيه من أمراض وهزيمة جسدية ونفسية فيقول أبو نواس:

دَبَّ في السَّقَامُ سُفْلاً وعُلْواً وأُراني أَموتُ عُضْواً فَعُضْوا

ذهبَتْ جِدَّتي بطاعةِ نَفْسي وتذكَّرْت طاعةَ اللهِ نِضْوا

وكم من إنسان يستطلع ندامة أبي نواس على ما فَرَّط في شبابه؛ لأنه لم يجعلها في طاعة الله، وقد ركبته نفسه وسيّرته نحو شهواتها... فكيف يعوّض ما فاته؟!

14. التحسُّر والتوجُّع:

التحسر: التلهف، وتحسَّر يتحسّر: يتلهف من الحزن وغيره... والتوجع: التألم والشكوى... توجَّع يتوجع له: رثى له من مكروه نازل. فالانزياح اللغوي عن التعبير المباشر في الجملة الخبرية إلى أنساق جمالية مثيرة يبرز قيمة التحوّل السياقي. ولا يشك أحد منا في أن التوجع للشباب جزء من رثاء النفس على نحو من الأنحاء؛ وهو دليل على ذلك؛ كما نراه في قول الشاعر:

مضَتِ الليالي البِيْضُ في زَمَنِ الصِّبَا وأتى المشيبُ بكُلِّ يومٍ أَسْود

فالحزن أو الأسى يتجلى في هذا النَّسق التعبيري المثير لكنه يصبح أكثر شدة في حالة الفقد المركب حين يفقد المتكلم شبابه ومحبوبته، أو حين تشرع المرأة تعيّره بعَجْزه وضَعفه؛ كما نستشفه من قول ساعدة بن جؤية في خطابه لأميمة؛ طالباً منها أن تتجمّل بالصبر:

جَمالَكِ إنَّما يُجديكِ عيشٌ أميمَ . وقد خلا عمري . قليلُ

وتتصاعد الحسرة والمواجع حتى تبلغ التفجع اللاذع إذا فقد المتكلم عزيزاً له، وهَتَكَ الموت راحته النَّفسية؛ فطفق يرزح تحت ثقل المصيبة كما نجده في رثاء أبي العتاهية لابنه علي:

بكيتُـكَ يـا علـيُّ بـدَمْعِ عـيني فمـا أَغْنَـى البكـاءُ عليـكَ شـيًّا

وكانَـتْ في حياتـك لـي عِظـاتٌ وأنـت اليـومَ أَوْعـظُ منـك حيّـا

فجماليـة التعـبير تنبـع مـن الحاجـة النفسـية الشـعورية وهـي تسـوق الأنسـاق الخبرية على التوالي بلا تقديم ولا تأخير... وتعبر عن تجربة فلسفية للشاعر في حياته، في إطار تصوير فني مثير... فالشاعر يقدم لنا فكرة ما؛ لكنه لا يقدمها كما يطرحها العلم، وإنما يعبر عنها بثوب جمالي مثير للعاطفة البشرية... وهنا نرى المتنبي يعبر بصورة بديعة عن غدر الموت بالأحياء، ولا شيء أدل على ذلك من اختطافه لأخت سيف الدولة وهي لا زالت في ريعان الشباب... فالموت مولع بقتل الناس جيلاً بعد جيل:

غَـدَرْتَ يـا مـوتُ!! كـم أَفْنيـت مـن عـددٍ بمَـنْ أَصـبْت، وكـم أسـكت مـن لجِـبِ!!

فالمتنبي لم يكتف بتقرير صورة غدر الموت بشكل موحٍ، وإنما استعظم كثرة من يصيبهم ويسكت أنفاسهم، فلجأ إلى استعمال (كم) الخبرية التي تفيد الكثرة، وكررها تأكيداً منه لمعنى المبالغة في الإكثار والاستعظام.

15. **الفَخْر والتفاخر:**

الفَخْر هو التمدّح بالخصال والأمجاد والأحساب والمناقب، والفعل: فَخَر يفَخَر، بينما التفاخر هو التعاظم بذلك على الآخر؛ والفعل تفاخر يتفاخر، وفاخره عارضه بفخره. ويدل أسلوب الفخر والتفاخر على الهدف منه، والوظيفة التي يرمي إليها المتكلم، وقد يرمي التفاخر إلى ادعاء العِظم والشرف والكِبْر تبجّحاً... فالمفتخر يتلذذ بإرسال الكلمات ويفتح عينيه على كل ما فيه من معطيات الزهو والاستعلاء... وهذا الأسلوب من أبرز ما عرفه الشعر العربي ابتداء من الجاهلية حتى اليوم؛ سواء كان ذلك فخراً ذاتياً، أم جماعياً؛ كقول عمرو بن كلثوم يفتخر بقومه:

نـدافعُ عـنهم الأعـداء قـدماً ونحمـلُ عـنهم مـا حمَّلونـا

نُطاعنُ ما تَراخَى الناسُ عَنَّا ونَضربُ بالسيوف إذا غُشِينا

ومثله قول أبي فراس في قومه:

إنَّا إذا اشتدَّ الزَّمَا نُ ونابَ خَطْبٌ وادْلَهَمّْ
أَلفيتَ حَوْلَ بيوتِنا عُدَدَ الشَّجاعةِ والكَرَمْ
للقا العِدا بيضُ السيو فِ وللنَّدى حُمْرُ النَّعَمْ
هذا وهذا دَأْبُنا يُودَى دَمٌ، ويُراقُ دَمْ

فالجملة الخبرية في أنساقها التعبيرية لم تقم على النمط الواقعي العقلاني؛ وإنما تصوغ فكرة الدفاع عن الذات الجماعية بأسلوب خيالي مثير يلبي مقتضيات الحاجات النفسية في التفاخر... ويربط بينه وبين روح الجدل الذي يدافع فيه عن قومه... وكذلك نراه في صورة التفاخر بالذات عند أبي فراس كقوله:

ومَكارمي عَدَدُ النُّجوم ومنزلي مَأْوَى الكرام ومَنزلُ الأَضْيافِ

لعل جمالية الأسلوب الخبري تنبثق هنا من منطق التعداد في المآثر والمحامد؛ بينما نجد أبا العلاء المعري يركز فخره في منطقه وشعره فيقول:

ولي مَنْطقٌ لم يَرْضَ لي كنْهَ على أنَّني بين السِّمَاكين نَازلُ

ويظل الحكم الجمالي شديد الصلة بالذوق، والذوق - غالباً - من يحكم على العناصر الفنية كما انتهى إليه عبد القاهر الجرجاني... لأنه طريق الشعور باللذة الفنية واللغوية؛ علماً أن أي أسلوب يظل ذا هدف محدد ويقدم وظيفة ما... وهو ما نراه في الأساليب كلها.

16. **الاستعطاف والاسترحام:**

الاستعطاف مشتق من فعل عطَف يَعطِف عَطْفاً: رحمه ورقَّ له. وتعطَّف عليه: رحمه، وتعاطف القوم: رحم بعضهم بعضاً، وأعطفه وعطّفَه فتعطَّف:

أمال قلبه إلى الرحمة، ومثله استعطفه: طلب رحمته، والمصدر: الاستعطاف. أما الاسترحام فهو طلب الرحمة والمغفرة معاً؛ والرحمة: هي الرقة والتعطُّف والمغفرة، والفعل: رحم يَرْحَم. وحين يستخدمان في أسلوب الخبر فإن جماليتهما تنبع من السياق لا من شروط خاصة تستبطن الحالة النفسية؛ لأنهما يعبّران عنها بأشكال متباينة التأثير وتتغلغل فيها روح العصر وثقافته وطبيعته. ولعل من أجمل ما يقع في ذلك إبراز حالات الضَّعف البشري والاستكانة والتوسل في سؤال الرحمة من الله أو أصحاب الجاه؛ كما في قول أبي نواس:

لهْـفَ نَفْسـي علـى ليـالٍ وأَيَّـا ... مٍ تجـاوزتُهُنَّ لِعْبـاً ولَهْـوا

قـد أسـأْنَا كُـلَّ الإِسـاءة فاللـّ ... ـهم صَـفْحاً عنَّـا وغَفْـراً وعَفْـوا

وقال النابغة يعتذر إلى النعمان بن المنذر ويستعطف قلبه:

أَتـاني .أبيـتَ اللَّعْـنَ .أنـك لمتني ... وتلـك الـتي تَسْـتَكُّ منهـا المسـامعُ

مقالـةُ أنْ قـد قُلْـتَ: سـوفَ أَنالُـه؛ ... وذلـك مـن تلقـاء مثلـك رائـعُ

17. المدح:

أسلوب يقوم على تعداد صفات الممدوح والثناء عليه بما يستحقه، وهو الأصل. ويقع إنشاءً وخبراً، ففي الأسلوب الخبري يقدم المتكلم عدداً من الإشارات النفسية والفكرية، والجمالية حين يتجه إلى سرد صفات الممدوح والثناء عليه كمدح النابغة الذبياني:

فإنَّـك شمـسٌ والملـوكُ كواكـبٌ ... إذا طلعَتْ لم يَبْدُ منهُنَّ كوكبُ

أراد بالجملة الخبرية (إنك شمس...) أن يبين منزلته العظيمة ويمدحه بها. فهناك جملتان في الشطر الأول ترسمان إيقاعاً متكاملاً وتبرزان خصائص الممدوح، وكذلك قوله في الغساسنة:

رِقـاقُ النِّعـال طَيِّـبٌ حُجُـزاتهم ... يُحَيَّـوْنَ بالرَّيْحـان يـومَ السَّبَاسـبِ

يصونون أَجساداً قديماً نَعيمها بخالصة الأرْدانِ خُضرِ المناكبِ

فالعناصر الأسلوبية تتعدد بتعدد الجمل الخبرية وترسم ألواناً مثيرة، فضلاً عن النّعمة التي تقررها للغساسنة؛ لأن الصورة الخارجية تُفضي بكل دقة إلى الواقع الثقافي والديني الذي كان عليه القوم آنذاك؛ وهو واقع يستدعي الثناء عليهم.

18. **الحث على السعي والجد وعلى أي أمر محمود:**

هذا غرض آخر في الجملة الخبرية المجازية كقوله تعالى: ﴿للذين أَحْسَنُوا الحُسْنَى وزيادةٌ﴾ (يونس 10/ 26). فالجمالية هنا لا تتوقف عند إبراز العناصر الجمالية للجملة الخبرية وإنما تبرز ازدياد القدرة النفسية والفكرية على توسيع آفاق التصور، وعليه قول محمد بن بشير الخارجي:

إني وإنْ قَصُرتْ عن همَّتي جِدَتي وكان مالي لا يقوَى على خُلُقي

لتاركٌ كلَّ أَمْرٍ كان يُلْزِمني عاراً ويُشْرِعُني في المَنْهَلِ الرَّنِقِ

فعناصر الإثارة الفنية قد تخدع القارئ بأنها عناصر ثابتة في الجملة الخبرية، ولكنها في أساليبها المجازية خاصة تبنى على طابع التغير النفسي والموضوعي.... لأنها ذات مضمون يحرك النوازع المتعددة لدى المتكلم والمخاطب، ولا سيما إذا كان يحرض الإنسان على عدم الاستكانة وقبول الضَّعف والواقع؛ كما في قول ابن نُباتة السعدي:

يَفُوتُ ضجيعَ التُّرَّهاتِ طِلابُه ويدنو إلى الحاجات مَنْ باتَ ساعيا

إن أي أسلوب مما تقدم يولّد في ذاته جملة من العناصر الفنية المتعاونة؛ وإن بُني أحياناً على أنساق تعبيرية إنشائية فهي جزء من السياق العام للجملة الخبرية.... وما على المتلقي إلا أن يعي التناغم الدلالي والتعبيري فيها، ويراعي صفة الترابط في العمل الفني... وهذا ما يمكن أن نراه في أضرب الخبر الرامية إلى أهداف معينة.

obeikandl.com

القسم الثاني: أَضْرب الخبر ومؤكداته

1. أضرب الخبر

أوضح لنا عبد القاهر الجرجاني الفروق الدقيقة في طريقة إلقاء الخبر للمخاطب؛ وهي طريقة ترتبط بأحواله، وسميت (أَضْرُب الخبر)... وبيَّن الجرجاني رَدَّ أبي العباس المبرد (ت 285هـ) على الكندي (ت 260هـ) فقال: "واعلم أن مما أغمض الطريق إلى معرفة ما نحن بصدده، أن ههنا فروقاً خفية تجهلها العامة وكثير من الخاصة، ليس أنهم يجهلونها في موضع ويعرفونها في آخر، بل لا يدرون أنها هي، ولا يعلمونها في جملة ولا تفصيل. روي عن ابن الأنباري أنه قال: رَكب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشواً، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم؛ ثم يقولون: إن عبد الله قائم؛ ثم يقولون: إن عبد الله لقائم؛ فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ؛ فقولهم: (عبد الله قائم) إخبار عن قيامه؛ وقولهم: (إن عبد الله قائم) جواب عن سؤال سائل، وقولهم: (إن عبد الله لقائم) جواب عن إنكار منكر قيامه؛ فقد تكررت الألفاظ لتكرُّر المعاني، قال: فما أحار المتفلسف جواباً". ثم يقول الجرجاني: "واعلم أنْ ههنا دقائق لو أن الكندي استقرى وتصفح وتتبع مواقع (إن) ثم أَلطف النظر وأكثر التدبر لعلم علم ضرورة أَنْ ليس سواءً دخولها وأن لا تدخل"[30].

فالجرجاني ما زال ينظر بعين معاني النحو وأثرها في عملية التأليف وارتباط ذلك بأحوال المخاطب... فالمتكلم حين يلقي إليه كلامه ينظر في أحواله فإن وجده مثبتاً لما يقول كان له طريقة خاصة مغايرة لها فيما لو كان مُتَردِّداً أو مُنْكِراً... فالمتكلم يتصور الحالة الذهنية للمخاطب... وهذا ما بينه عبد القاهر على لسان المبرد، ولم يتنبه له الفيلسوف...

فصياغة الجملة الخبرية وتحديد تركيبها يتوافق مع حال المخاطب، فيخرج الكلام وَفْق القاعدة البلاغية (لكل مقام مقال) و(مقتضى الحال) حال المخاطب لا حال المتكلم كما أشرنا إليه من قبل. وقد تبين البلاغيون ثلاثة مصطلحات لثلاث أحوال؛ أطلقوا عليها أضرب الخبر... وربما تتشابه في الطريقة مع أغراضه باعتبار المتكلم، ولكنها تفترق في الهدف؛ وهي:

أولاً ـ الضَّرْب الابتدائي:

ويكون المخاطب في هذا الضرب خالي الذهن من الحكم الذي يلقيه إليه المتكلم، ولا علم له به، وليس له موقف مسبق منه؛ كقوله تعالى: ﴿ويقولون: آمنّا باللّه وبالرسول، وأطعنا، ثم يتولَّى فَريقٌ منهم من بعد ذلك﴾ (النور 24/ 47)...

فهذه الآية خلت من أي توكيد؛ ومضت إلى القدر الذي احتاج إليه المخاطب من الكلام؛ بينما نجد قوله تعالى: ﴿قال: بل فعله كبيرهم هذا﴾ (الأنبياء 21/ 36) مختصراً تبعاً للحاجة إليه في خطاب إبراهيم (عليه السلام) للقوم.

فهذا الضرب لا يحتاج إلى توكيد؛ ويكون طول الجملة وقصرها على قَدْر الحاجة عند المخاطب تبعاً لتصور المتكلم؛ وعليه قول المتنبي المشبع بأساليب بلاغية جميلة؛ ولا سيما الطباق والمقابلة والالتفات:

أَنا الذي نَظَر الأعمى إلى أَدَبي ... وأَسمعَتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ

أَنامُ مِلءَ جُفوني عن شوارِدِها ... ويَسْهرُ الخَلْق جَرَّاها ويَختصمُ

وكذلك قول أبي تمام:

ينال الفتى من عيشهِ وهو جاهلُ ... ويُكْدِي الفتى في دَهْره وهو عالمُ

ولو كانتِ الأَرزاقُ تجري على ... هَلَكْنَ إذاً من جَهْلهِنَّ البهائمُ

وقال أبو الطيب:

على قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تأتي العزائمُ وتأَتي على قَدْرِ الكِرامِ المكارمُ

وتكبرُ في عَيْنِ الصغيرِ صغارها وتصغُرُ في عين العظيمِ العظائمُ

فلما كان الغرض من هذا الأسلوب مطلق الإخبار من غير تعرّض لما وراءه أُرسل على هذا الشكل التقريري، ولكنه موشىً بظلال جميلة لافتة للنظر لما اشتمل عليه من الحكمة الموشاة ببهاء التقابل الجمالي المعبر والمثير للفكر والنفس، فضلاً عن الإيقاع الموسيقي الجميل الناشئ من أسلوب رد العجز على الصدر، ومن صيغ أبنية الكلمات وتقارب حروف قسم منها.

ثانياً ـ الضَّرْب الطلبي:

هو كل كلام يتوجه فيه المتكلم إلى المخاطب ويتصور أنه شاكٌّ أو متردد بين قبوله ورفضه لأنه لا يعرف مدى صحته؛ وهو الذي قال عنه السكاكي: "وإذا ألقاها [أي الجملة الخبرية] إلى طالب لها متحيّر طرفاها عنده دون الاستناد فهو منه بين بين لينقذه عن ورطة الحيرة استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة أو إنَّ"[31].

فالمتكلم هنا يحتاج إلى استعمال إحدى المؤكدات اللفظية التي سنأتي على ذكرها ومنها إنَّ، أنَّ، قد، لام الابتداء، القسم... كقوله تعالى: ﴿إذ قالوا: ليوسُفُ وأَخُوْهُ أَحبُّ إلى أبينا منا﴾ (يوسف 12/ 8)، فلام الابتداء أزالت التردد عند المخاطب...

وقال جرير (ت 110هـ) مستخدماً التوكيد (إنَّ):

إنَّ العيونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيِيْنَ قَتْلانا

وقال أبو العتاهية:

إني رأَيْتُ عَواقبَ الدنيا فتركْتُ ما أَهْوى لِمَا أَخْشى

فالمقصود بهذا الأسلوب الطلب، ولهذا وجب تأكيده في النفس بما يقرره فيها ويوضح المقصود منه...

ثالثاً ـ الضَّرْب الإنكاري:

هو كل خبر يعلم به المخاطب على نحو ما ولكنه ينكره إنكاراً يحتاج إلى توكيد بأكثر من مؤكد كقوله تعالى: ﴿إنَّا إليكم لمرسلون﴾ (يس 36/ 16) وكقوله: ﴿وإنَّ ربَّكَ لهُوَ العزيزُ الرحيم﴾ (الشعراء 26/ 9 و68 و104 و122 و140 و159 و175 و191) وقوله: ﴿لتُبْلَوُنَّ في أموالكُم وأنْفُسِكُم﴾ (آل عمران 3/ 186) فالتوكيد هنا بلام القسم، ونون التوكيد الثقيلة... فالمطلوب وجوب التأكيد لأجل إنكار المخاطب للخبر... فكلما زاد الشك والإنكار زاد التوكيد في صياغة الخبر وعليه قول تأبط شراً حين وجد القوم ينكرون قتله للغُوْل:

فمَنْ ينكر وجودَ الغُول إنِّي ... أُخَبِّرُ عن يَقينٍ بَلْ عَيَانِ

بأَنّي قد لقيتُ الغُول تَهْوِي ... بسَهْبٍ كالصَّحيفةِ صَحْصَحانِ

فأَضْرِبُها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صَريعاً لليَدَيْنِ وللجِرانِ

وقال لبيد بن ربيعة:

ولقد عَلِمْتُ لتأتينَّ مَنِيَّتي ... إنَّ المنايا لا تَطيشُ سِهامُهَا

فهذا البيت ينطوي على ضَرْب من المؤكدات تثبت للمخاطب وللنفس على السواء أن الموت مصير كل حي؛ وسهام المنايا لا تخيب... ولنلحظ الصورة الإنكارية المختبئة وراء التّصوير الفني... فهناك من يشك أشد الشك في مجيء الموت بعد طول عمر، ما جعل الشاعر يستنكر عليه فعله. لهذا استعمل (اللام الموطئة للقسم مع قد) ثم استعمل (اللام الواقعة في الجواب مع التوكيد بنون التوكيد).

ولم يكتفِ بهذا، وإنما أضاف إليه الحرف (إنَّ) الذي يفيد التوكيد...

وشبيه به قول حسان بن ثابت في استعمال المؤكدات التي يرد بها على من ينكر عليه صفاته:

وإنِّـــي لحُلْـــوٌ تَعْتريـــني مَـــرَارةٌ وإنِّـــي لتَـــرَّاكٌ لِمَـــا لمْ أُعَـــوَّدِ

إن بناء العناصر الفنية الشعرية من لغة وصورة وإيقاع لا تلغي المستويات الفنية البلاغية الدالة على مفاهيم ودلالات نفسية متعددة...

ومن هنا نرجع مباشرة إلى اللغة الفنية ذاتها، فالبلاغة العربية رحلة في أعماق الكلمات، وهي ترسم فيها تساؤلات كثيرة تعبر عما يدور في خلد المتكلم ومن ثم المخاطب على جهة الإسناد الحقيقي ـ كما رأينا ـ أو على جهة الإسناد المجازي بخروج الخبر من أغراض إلى أخرى مما يبرز جمالياتها المتعددة... وهذا نفسه ما يجعلنا نتحدث عن جماليات المؤكدات التي تستعمل في الجملة الخبرية، فهي ليست مجرد زينة أو ألفاظ عابرة. فهناك أنماط لغوية خاصة تفضلها الجملة الخبرية كما مرَّ بنا في أضرب الخبر وأساليبه المجازية تؤدي وظيفة جمالية تعبيرية ووظيفة نفسية وفكرية في آن واحد؛ لأن فعلية التغيير اللغوي في الأسلوب البلاغي عملية بناء في وجدان المتكلم، ومن ثم في وجدان المتلقي (المخاطب). وهناك مسوغات وغايات تقتضي استعمال هذا الضَّرب من الخبر أو ذاك، أو هذا النمط من الكلام دون غيره.

وحين تصبح لغة المتكلم على هذه الجهة المشحونة بالعواطف ـ وقد اقتضت زيادة عدد المؤكدات في الجملة الواحدة ـ فإنما تؤكد أن المتكلم لم تكن غايته أن يتلاعب بالألفاظ وهو يكرر العديد منها، أو ينوع في أشكالها، فالأسلوب الخبري بأشكاله كلها ممارسة حرَّة مرتبطة بوظائف نفسية عالية، وموضوعية وفنية.

ولعل هذا كله ما نلقاه في الحديث عن أنواع مؤكدات الجملة الخبرية بما تقوم به من عملية ربط لغوي ودلالي في الوقت الذي تعدُّ مكثفة لتجربة المتكلم في كيفية إلقاء خطابه إلى المخاطب؛ وتوظيف المؤكدات توظيفاً دقيقاً في المجالات المتعددة. فالمضمون الأصيل للأداة لم يعد مجرد أداة ربط؛ بل تعدى هذه المهمة إلى خدمة رؤية المتكلم وفق عمليتي الخلق والتذوق، ومن أجل

إحكام العلاقة مع المخاطب (المتلقي) والمجتمع.

2. مؤكدات الخبر

اللغة في الشعر تستشعر الحالة النفسية والموضوعية، ولا سيما حين تصوّر أبعادها كلها؛ لتغدو القصيدة الشعرية تجربة فنية مرئية أساسها الكلمات، وكذلك هي قطعة النثر الفني. ويبدو لي أن اللغة ذاتها في أساليب الخبر تأخذ رحلة مثيرة على متن الألفاظ. فهي تعبّر عن صور نفسية وفكرية واجتماعية و... متعددة؛ لأن اللغة والعاطفة والفكرة ماهيات مُتداخلة، على ما يقال: إن اللغة وعاء للفكر.

فاللغة تحكي الحالة النفسية بمثل ما تعبر عن التجربة الذاتية والاجتماعية والموضوعية.

ولهذا فإن التلاحم العضوي بين اللغة والحالة النفسية يمثله جوهر الشكل البلاغي، أو الأسلوب اللغوي للتعبير... فيتلون بتلون الصور الدلالية التي يعبر عنها، ويتماوج بتماوج النفس وأحوالها المتنوعة...

فحين يرى المتكلم أن المخاطب شديد الإنكار لما يقوله فإن لغته ستختلف عنها فيما لو كان المخاطب مقراً بما لدى المتكلم... فالأسلوب البلاغي يأخذ على عاتقه جملة من الأهداف التي يسعى المتكلم إلى تعزيزها...

فالتجربة البلاغية تجربة لغوية جمالية ـ بهذا التصور ـ وهي تجسد طاقات نفسية وفكرية واجتماعية... كثيرة، وتبرز في الوقت نفسه قدرة المتكلم على الإقناع والإبداع...

من هنا يصبح بحث (مؤكدات الخبر) بحثاً بلاغياً جمالياً، وإن أخضعه اللغويون لقواعد تحدد طبيعة أنواع المؤكدات... فمعرفة طبيعة المؤكدات لا يعني أكثر من إدراك أساليب توكيد الجملة الخبرية في ضوء الأحوال اللغوية... ولكن الصورة الجمالية لهذه الأساليب تكمن في الدلالة التصويرية لما تتبناه

هذه الأساليب، واختلافها عن غيرها... فاللغة الجمالية في مؤكدات الخبر تغدو خصيصة ذاتية لها تتعلق بالهدف والمقام... وتصبح اللفظة في حسن ملاءمتها لأخواتها وإصابة المراد منها جميلة وإلا عُدَّت مستقبحة، فهي أداة ربط وأداة معنوية في وقت واحد.

هذا ما حاول عبد القاهر الجرجاني أن يثبته منذ القديم في كتابه (دلائل الإعجاز) وهذا ما تتبناه أحدث النظريات الجمالية... ولعل ما يلفت النظر في مؤكدات الجملة الخبرية أن الدلالة منفتحة على قصدية المتكلم ومراعاة المقام والحال... ولهذا نرى أن أي ضرب من ضروب أساليب التوكيد متمكّن في الجملة الخبرية ليكشف عن جمالية خاصة، وربما تنوعت فيه أشكال الجمال...

وهنا نبرز من جديد ما نؤمن به من أن اللغة في الجملة الخبرية أو في الجملة الإنشائية ليست لغة محايدة، ولا منفتحة على عالم لا متناهٍ كما تذهب إليه نظرية النص المفتوح التي نادى بها المفكر الفرنسي (رولان بارت)[32]؛ في الوقت الذي يمكن لها أن تحقق ذلك. فالألفاظ في مؤكدات الجملة الخبرية تكتسب جماليتها من تنوعها ثم كثرتها في أسلوب ما أولاً ثم فيما تحمله من وظائف ثانياً، فأي متكلم محكوم بشروط ذاتية وموضوعية وفنية لاستخدام هذا المؤكد أو ذاك، مما يجعل اللغة في بنية كلامه غير إشارية ولا اعتباطية[33]. ولعل دخول هذا اللفظ أو ذاك في سياق بلاغي ما يعبر عن مفهوم لغوي انزياحي ليحقق للمتكلم في معرض الاستبدال والتوزيع ما يصبو إليه.

فأساليب البلاغة تصبح في مؤكدات الخبر لغة أخرى تنحرف عن المعيار كما يقول (جان كوهن) في حديثه عن اللغة الشعرية[34]. وقد وضّح هذا الأمر الذي نتجه إليه (ريفاتير) بتصوره لمفهوم الانزياح اللغوي الذي "يكون خرقاً للقواعد حيناً، ولجوءاً إلى ما ندر من الصيغ حيناً آخر. أما في حالته الأولى فهو من مشمولات علم البلاغة، وأما في صورته الثانية فالبحث فيه من مقتضيات اللسانيات عامة والأسلوبية بوجه خاص"[35].

ومن هنا نخرج إلى ذكر المؤكدات التي استعملت لتوكيد الخبر، وأبرزها:

1. **إنَّ**: هذا الحرف يعد رأس حروف النواسخ التي تختص بالجملة الاسمية فتنصب المبتدأ (المسند إليه) وترفع الخبر (المسند) الاسم، أو يكون في محل رفع خبر (الفعل). أي إن أثره عظيم في البنية اللغوية فضلاً عن التوكيد، ولهذا وقف عنده عبد القاهر الجرجاني وغيره من الدارسين[36]. ومثاله قول البحتري:

شَرَفاً بَني العبَّاس إنَّ أباكمُ عَمُّ النبيّ وعِيْصُهُ المُتفرِّعُ

إنَّ الفضيلةَ للَّذي استسقى بهِ عُمَرٌ، وشُفِّعَ إِذْ غَدا يَسْتَشفعُ

واستعمل (إنَّ) للتوكيد أبو نواس في قوله:

عليكَ باليأْسِ منَ النَّاسِ إنَّ غِنى نَفْسِك باليأْسِ

إنك ترى حسن موقع (إنَّ) في بيت أبي نواس "وكيف قبول النفس لها، وليس ذلك إلا لأن الغالب على الناس أنهم لا يحملون أنفسهم على اليأس، ولا يَدَعُوْنَ الرجاء والطمع، ولا يعترف كل أحد، ولا يُسَلِّم أن الغنى في اليأس. فلما كان كذلك كان الموضع موضع فقر إلى التأكيد. فلذلك كان من حسنها ما ترى" [37]. وقد جاءت مخففة (إنْ) أي حذفت نون منها في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهم ربُّك أَعمالَهم﴾ (هود 11/ 111) ومن الناس من أهمل عملها كقول الشاعر:

أنا ابنُ أُباةِ الضَّيمِ من آلِ مالكٍ وإِنْ مالكٌ كانتْ كرامَ المعادنِ[38]

2. **أنَّ**: لم يجعلها العديد من اللغويين القدماء من المؤكدات لأن ما بعدها في حكم المفرد، وإنما المراد بالتوكيد تأكيد النسبة لا (المسند إليه أو المسند) بَيْدَ أن ابن هشام قال: "ـ أَنَّ ـ تكون حرف توكيد تنصب الاسم وترفع الخبر، والأصح أنها فرع عن (إنَّ) المكسورة"[39]، وعليه قوله تعالى: ﴿قل: إنما يوحى إليَّ أَنَّما إلهكم إله واحد﴾ (الأنبياء 21/ 108) وقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه

أنَّ دابر هؤلاء مقطوع﴾ (الحجر 15/ 66). وقد تخفف (أنَّ) بحذف نون منها فتصبح (أَنْ) ويبقى لها العمل والتوكيد كقوله تعالى: ﴿عَلم أَنْ سيكون منكم مَرْضى﴾ (المزمل 73/ 20) وكقول جرير:

زعمَ الفَرَزْدقُ أَنْ سيقتلُ مِرْبعاً أَبشرْ بطولِ سلامةٍ يا مِرْبَعُ

ومن الشواهد الشعرية على (أنَّ) المشددة للتوكيد قول النابغة الذبياني:

يُخبركمُ أَنَّه ناصحٌ وفي نُصْحِهِ ذَنَبُ العَقْربِ

3ـ **كأنَّ**: هذه الأداة تشتمل على التشبيه المؤكّد سواء كانت بسيطة (الكاف) أم مركبة من كاف التشبيه وأنَّ (كأنَّ) وتصبح متضمنة للحرف (أنَّ)[40] كقوله تعالى: ﴿وأَصبحَ الذين تَمَنَّوا مكانه بالأمس يقولون: وَيْ كأَنَّ اللّه يَبْسُط الرزق لِمَنْ يشاءُ من عبادهِ؛ ويَقْدِر، لولا أَنْ مَنَّ اللّه علينا لخسَفَ بنا، وَيْ كأنَّه لا يُفْلحُ الكافرون﴾ (القصص 28/ 82).

وقال الحارث بن خالد المخزومي في رثاء هشام بن المغيرة وقد استعمل (كأن) بمعنى (لأن):

وأَصبحَ بَطْنُ مكَّةَ مُقْشَعِرّاً كأنَّ الأرضَ ليس بها هشامُ

ولذا استعملت (كأن) على الحقيقة لا على التشبيه، فلم يعد المرثي فوق الأرض وإنَّما صار في بطنها.

وبهذا كله خرجت البلاغة باستعمال (كأنَّ) إلى أسلوب جمالي طريف وبديع، بعد أن كانت أداة ربط وتشبيه فقط... حين أنزلتها مقام أداة أخرى على الحقيقة.

4ـ **لكنَّ**: أداة تستعمل لتأكيد الجمل؛ وقيل للتوكيد مع الاستمرار؛ وقيل: هي مثل (إنَّ) للتوكيد دائماً كقوله تعالى: ﴿إِنَّك لا تَهْدي من أحببت، ولكنَّ اللّه يهدي من يشاء﴾ (القصص 28/ 56) وكقوله: ﴿إِن اللّهَ لذو فَضلٍ على

الناس ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون﴾ (يونس 10/ 60)، وانظر فيها آية 55، وسورة الأعراف 7/ 131)... وكقول المتنبي:

فلا تعجَبا إنَّ السُّيوفَ كثيرةٌ ولكنَّ سَيْفَ الدولةِ اليومَ واحدُ

ويرى البصريون أن (لكنَّ) بسيطة؛ فأصلها (لكنْ أنَّ) فطُرحت الهمزة للتخفيف ونون (لكنْ) للساكنين؛ بيد أن الكوفيين يرون أنَّها مركبة من (لا) و(إنَّ) أما الكاف فزائدة؛ وليست للتشبيه، على حين حُذفت الهمزة تخفيفاً[41]. وقد تدخل ما الزائدة عليها فتكفها عن العمل؛ ومن ثم تدخل على الجملة الفعلية ويبقى لها التوكيد كقول امرئ القيس:

ولكنّما أسْعى لمجدٍ مؤثَّلٍ وقَدْ يُدْرَكُ المجدَ المؤثَّلَ أَمثالي

5ـ **لام الابتداء**: لام الابتداء؛ سميت بهذا لأنها في الأصل تدخل على المبتدأ وتفيد التوكيد[42] كقوله تعالى: ﴿ليوسُفُ وأَخوه أَحبُّ إلى أَبينا منَّا﴾ (يوسف 12/ 8) وكقول ميسون بنت بَحْدل:

لبَيْتٌ تَخْفُقُ الأَرْواحُ فيه أَحَبُّ إليَّ من قَصْرٍ مُنِيْفِ

وإذا دخلت (إنَّ) على جملة مؤكدة بلام الابتداء فصل بينهما بفاصل كالحديث الشريف: "إن من البيان لسِحْراً"[43] وكقول المتنبي في مدح كافور:

إنَّ في ثوبك الذي المجدُ فيه لَضِياءً يُزْري بكُلِّ ضياءِ

وربما انتقلت إلى الخبر فأطلق عليها (اللام المزحلقة) كقوله تعالى: ﴿إنَّ هذا لسَاحِرٌ عليم﴾ (الأعراف 7/ 109) وقوله: ﴿قال نَعَم؛ وإنكم لمِنَ المقرَّبين﴾ (الأعراف 7/ 114) وكقوله: ﴿إنَّ ربِّي لسميعُ الدعاء﴾ (إبراهيم 14/ 39) وكقول الفرزدق:

وإنَّ هِجاءَ البَاهِلِيّيْنَ دارماً لإِحْدَى الأُمورِ المنكراتِ العظائمِ

وقول أبي العلاء:

وإنـي وإن كنـتُ الأَخـيرَ زمانُـهُ لآتٍ بمـا لمْ تَسْـتطعْهُ الأوائـلُ

ولها مواضع ذكرها اللغويون كالمبتدأ أو الخبر المتقدم على المبتدأ وبعد (إنَّ) المكسورة وفي المضارع والماضي.

6. **قد**: لها معان خمسة أبرزها توكيد الماضي[44] كقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ (المؤمنون 23/ 1) وقوله: ﴿قَدْ أَفلح مَنْ زَكّاها❖ وقد خَابَ مَنْ دسَّاها﴾ (الشمس 91/ 9 ـ 10) وقول الفرزدق:

وقَدْ تَحَرَّفَ حتى قال: قد فَعَلَتْ واستَوضَحَتْ صَفَحاتِ القُرَّحِ الهِيْمِ

وقال البحتري في وصف أخلاق ممدوحه:

وقد زادها إفراطَ حُسْنٍ جوارُها خلائـقَ أصْـفار مـن المجـدِ خُيَّـبِ

واختلف في معناها إذا دخلت على المضارع المتصف بالله سبحانه؛ فقيل: هي للتوكيد والتحقيق، وقيل: هي لتقليل متعلقها. فهي للتوكيد في قوله تعالى: ﴿قد يعلمُ الله الذين يتسلَّلونَ منكم لِوَاذاً...❖ أَلاَ إنَّ للّهِ ما في السموات والأرض، قَدْ يعلمُ ما أَنتم عليه﴾ (النور 24/ 63 ـ 64). ويرى ابن هشام أنها في مثل هذه الأمثال لتقليلِ متعلقها؛ أي (ما هم عليه هو أقل معلوماته سبحانه"[45]، وتدخل لام الابتداء على (قد) وتسمى عند بعض النحويين (لام) القسم؛ أي الواقعة في جوابه؛ كقوله تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين﴾ (يوسف 12/ 7).

7. **القسم**: يقع القسم بألفاظ كثيرة؛ أدواتٍ وأركاناً... ويشتمل على جملة القسم وجملة جواب القسم. وكلتاهما عند النحاة جملة يؤكد بها المتكلم خبره كقوله تعالى: ﴿واللّهُ يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون﴾ (المنافقون 63/ 1). وقد كثرت الأيمان بالله، وبكل ما هو عزيز مكرم عند المتكلم، كما سنمثل له فيما يأتي... وللقسم حروف هي (الواو والتاء والباء)[46]؛ والواو أصلها، لذا اختصت بجواز حذف الفعل معها، وذكره نادر، كقولنا: أقسم والله، إنه

لصادق؛ والأكثر حذف الفعل، وحذفه مطّرد في القرآن والشعر؛ كقوله تعالى: ﴿والضُّحى❖ والليل إذا سجى﴾ (الضحى 93/ 1ـ 2) وقول الشاعر:

واللهِ إنـــي لأَخُـــو هِمَّـــةٍ تســـمُو إلى المجـــد ولا تَفْـــترُ

(والباء) عكس (الواو) يطرد ذكر فعل القسم معها ويندر حذفه، كقوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أَيمانهم﴾ (الأنعام 6/ 109) وهناك آيات أخرى؛ وكقول زهير في المدح:

أَقسمتُ بالبيت الذي طافَ حولَهُ رجالٌ بنَوْهُ، من قُريشٍ وجُرْهُمِ

يميناً، لِنعْمَ السَّيِّدانِ وُجدْتُما على كلِّ حَالٍ من سَحِيْلٍ ومُبْرَمِ

ويمكن حذف الفعل معه على ندرة كقولنا: باللهِ، قد نجح زيد. أما (التاء) فلا يذكر فعل القسم معها، كقوله تعالى: ﴿تا لله لأكيدَنَّ أَصْنامَكم﴾

(الأنبياء 21/ 57).

وتعد جملة القسم من الإنشاء غير الطلبي، ولكنها جملة تؤكد القسم، ما جعلها تأخذ اسمه[47]. وقد تدخل (لام) في جملة القسم أو جوابه وتفيد التوكيد، وعليهما قول النابغة الذبياني، وأقسم بعمره؛ فأدخل اللام في قسمه، ثم جاء بها في الجواب (لقد):

لعَمْري؛ وما عَمْري عليَّ بهيِّنٍ لقد نَطقَتْ بُطْلاً عليَّ الأَقارعُ

فإحساس النابغة بالظلم جعله يستعمل التوكيد مرات عديدة (القسم ـ اللام ـ قد ـ أسلوب الحصر ـ تكرار اللام ولفظ عمري ـ أسلوب التعجب) وكل ذلك ليبرئ نفسه من وشاة أقارع بني عوف.

8. **نونا التوكيد**: وهما نونا التوكيد الخفيفة والثقيلة، وتتصلان بالجملة الخبرية التي صدرها فعل مضارع؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿ولئن لم يفعل ما آمرُه ليُسْجَنَنَّ وليكونَنْ من الصاغرين﴾ (يوسف 12/ 32) وكلتاهما أصل

عند البصريين؛ بينما الثقيلة هي الأصل عند الكوفيين، ومعناهما للتوكيد، وقال الخليل: والتوكيد بالثقيلة أبلغ[48] ومنه قوله تعالى: ﴿فوَ ربِّك لنحشرنَّهم والشياطين، ثم لنُحضرنَّهم حول جهنم جِثِيّاً﴾ (مريم 19/ 68). ونقل التوكيد بالنون كثيراً في كتب النحو، وذكرت له شروطاً وأحوالاً، ليس موضعها هنا)[49]. ومن شواهد النون الشعرية قول الفرزدق:

ولأَكتمنَّ لكِ الذي استودَعْتِني والسِّـــرُّ مُنْتشـــرٌ إذا لمْ يُكْـــتَمِ

9. **السين وسوف**: وهما مختصان بالفعل المضارع، وتفيدان التوكيد في استعمالها للوعد والوعيد؛ ويلغى معنى التسويف... والفرق بين السين وسوف، أن سوف تنفرد بدخول اللام عليها نحو قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ (الضحى 93/ 5) ومعنى (سوف) هنا للتوكيد لأنها في باب الوعد وكقوله تعالى: ﴿ولسوف يرضى﴾ (الليل 92/ 21). واستعملت السين لتأكيد الوعد في قوله تعالى: ﴿أولئك سيرحمهم اللّه﴾ (التوبة 9/ 71). وفي الوعيد نجد قوله تعالى: ﴿سيصلى ناراً ذات لَهَب﴾ (المسد 111/ 3). وكقولنا: سأنتقم منك، وكذلك فيها رائحة الوعيد في قول المتنبي:

سيعلمُ الجمعُ ممن ضَمَّ مجلسُنا بأنني خيرُ مَنْ تَمْشي به قَدَمُ

ومن الوعيد في (سوف) قوله تعالى: ﴿فكفروا به فسَوْف يَعلمون﴾ (الصافات 37/ 170) وقوله: ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ (الفرقان 25/ 77).

وللسين وسوف معانٍ أخرى ليست من التوكيد، علماً أن السين عند بعض اللغويين مقتطعة من (سوف)؛ وهي دعوى مردودة لدينا[50].

10. **حروف التنبيه**:

أولها (ألا) للتنبيه؛ وتفيد تحقيق ما بعدها... كقوله تعالى: ﴿أَلا إنهم هُمُ السُّفَهاء﴾ (البقرة 2/ 13) ودخلت فيه على الاسمية كما تدخل على الجملة الفعلية... كقوله تعالى: ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ (هود 11/ 8).

وقيل: إنها مركبة من (الهمزة) و(لا) والهمزة إذا دخلت على النفي أفادت

التحقيق[51]؛ كقول المعري:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفافٌ وإقدام وحَزْم ونائل

وأُختها في التنبيه وإفادة التوكيد (أَمَا) التي تتصدر القسم وطلائعه كقول حاتم الطائي:

أَمَا والذي لا يعلمُ الغَيْبَ غَيرُهُ ويُحْيي العِظامَ وهيَ رَميمُ

واختلف في ماهية تركيب (أمَا) مثلما اختلف في تركيب بنية (ألا)، وقد تقع بمعنى (حقّاً) وتكسر همزة (إنَّ) أو تفتح (أَنَّ) على التأويل إذا وقعتا بعد (أَلا) و (أَمَا)، [52] وفي كلتا الحالتين تفيدان التوكيد.

11. **الحروف الزائدة:**

ومنها (الباء) و(مِنْ) كقوله تعالى: ﴿وما أَنَا بظَلاَّم للعبيد﴾ (ق 50/ 29) وقوله: ﴿أليسَ ذلك بقادرٍ على أَنْ يحيي الموتى﴾ (القيامة 75/ 40)؛ وقال عمرو بن معد يكرب:

لَيسَ الجمالُ بمِئْزَرٍ فاعلم وإنْ رُدِّيتَ بُرْدا

وزيادة الباء تكون للتوكيد في ستة مواضع[53] وتزاد في جمل إنشائية، وفي جمل خبرية متضمنة معنى الأمر كفاعل كفى، نحو قوله تعالى: ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ (الرعد13/ 43) وقال المتنبي، وزاد الباء في فاعل (كفى) المتعدي لواحد:

كفى ثُعَلاً فَخْراً بأنكَ منهُمُ ودَهْرٌ لأَنْ أَمسيتَ من أَهلِهِ أَهْلُ

وتتصل الباء الزائدة للتوكيد بالمفعول في الجملة الخبرية كقوله تعالى: ﴿فطفق مَسْحاً بالسُّوق﴾ (ص38/ 33) أي يمسح مسحاً[54].

والأداة الثانية (مِنْ)، وتأتي زائدة لتوكيد العموم؛ كقولنا: ما جاءني من أحد، فهي التي تُسبق بنفي أو نهي أو استفهام[55] ولذا تكون للجمل الإنشائية في مثل هذه المواضع... وغيرها... ولم يُشترط أن تسبق بذلك عند بعض اللغويين

ودخلت في الجملة الخبرية للتوكيد؛ واستُدل بقول العرب "قد كان من مطر"، وبقوله تعالى: ﴿ولقد جاءك من نَبأ المرسلين﴾ (الأنعام 6/ 34) وخرجها الكسائي على الزيادة للتوكيد في الحديث: "إنَّ مِنْ أَشدّ النَّاس عَذاباً يوم القيامة المصورون". وهي زائدة على قول الفارسي في قوله تعالى: ﴿ويُنزِّلُ مِنَ السماءِ من جبالٍ فيها من بَرَدٍ﴾ (النور 24/ 43)[56].

ويكون "دخولها في الكلام كخروجها. وتسمى الزائدة لتوكيد الاستغراق"، فضلاً عن أنها قد تزاد "لتفيد التنصيص على العموم [وتسمى الزائدة لاستغراق الجنس]"[57].

12. **ضمائر الفصل**:

ذهب عدد من اللغويين إلى أن الضمائر المنفصلة (أنا، نحن، هو، هي... هن... أنتَ، أنتِ...) وما يطّرد فيها قد تفيد الفَصل مع التوكيد في بعض الجمل الخبرية والإنشائية[58]؛ كأن نقول: زيد هو العالم؛ وكقوله تعالى: ﴿إنكَ أنتَ علاَّم الغيوب﴾ (المائدة 5/ 109) وقوله: ﴿إنَّ شانئكَ هو الأَبْتَر﴾ (الكوثر 108/ 3)... وقوله: ﴿وكنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم﴾ (القصص 28/ 58).

فالتوكيد بضمير الفصل يكون لضمير مستتر أو متصل أياً كان موقعه في الإعراب... كما في قوله تعالى: ﴿إنْ كنا نحن الغالبين﴾ (الأعراف 7/ 113) واختلف في عودة ضمير الفَصل إلى فاعله المؤكد له في قول جرير؛ أهو المتصل أم المستتر:

وكائنٍ بالأَباطحِ مِنْ صديقٍ يَراني لو أُصِبْتُ هوَ المُصَابا

فالضمير (هو) يؤكد الفاعل العائد إلى الصديق، أو إلى المصاب؛ ويكون التقدير الآتي: (لو يرى صديقي المصاب هو المصاب). وذهب أكثر البصريين إلى أن ضمائر الفصل اسم مؤكد ولا محل له من الإعراب، بينما رآها الكوفيون حروفاً جاءت لمعنى ما...[59].

13. **أمَّا**:

obeikandi.com

هي حرف شرط وتفصيل وتوكيد؛ وأكثر ما يلتفت إليها اللغويون في الحديث عن الشرط (من الإنشاء غير الطلبي) وأما ما يتعلق بالجمل الخبرية فقد كشف عنه الزمخشري. يقول ابن هشام: "وأما التوكيد فقلَّ من ذكره ولم أَرَ مَنْ أحكم شرحه غير الزمخشري فإنه قال: فائدة (أمَّا) في الكلام أن تعطيه فضل توكيد تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمة قلت: أمّا زيدٌ فذاهب؛ ولذلك قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، وهذا التفسير مدل بفائدتين: بيان كونه توكيداً، وأنه في معنى الشرط"[60].

وعليه قوله تعالى: ﴿فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنَّهُ الحقُّ من رَبِّهم﴾(البقرة 2/ 26) وقول الفرزدق في مدح الوليد بن عبد الملك يوم بنى المسجد الأموي:

أمَّـــا الوليـــدُ فـــإنَّ اللهَ أَورثَـــهُ بعلمـــه فيـــه مُلْكـــاً ثابـــتَ الـــدِّعَمِ

ولاستعمال (أَمَّا) شروط ذكرها النحاة ليس هنا مجال ذكرها[61].

تلك هي أبرز مؤكدات الجملة الخبرية التي تتطلع إلى حال المخاطب في درجات إنكاره؛ ما يجعلها ذات جمالية نفسية خاصة في طرائق استعمالها، وإن وجدت أدوات أخرى للتوكيد[62].

إن الجملة الخبرية بما انتهينا إليه في دراستنا لها تقدم لمتلقيها البلاغي والجمالي رؤية جمالية فريدة، تقوم على عناصر ذات دوائر متعددة ومتسعة... أساسها اللغة وجناحها الخيال الموحي، والتصور النفسي والاجتماعي والفكري الرفيع... ولا يختلف في هذا الوصف أي نمط من أنماطها سواء على سبيل الإخبار الحقيقي المرتبط بهدف محدد، أم على سبيل الإخبار المجازي الذي يجعل هدفه كامناً في جملته...

وقد استطاعت أضرُب الخبر أن تقدم شيئاً جديداً، لم نعثر عليه في كثير من الأغراض الحقيقية أو المجازية عند عدد غير قليل من الدارسين للجملة الخبرية.

وبذلك كله استطاعت الجملة الخبرية أن تحمل طاقات خلاقة في الدلالة والتأثير ولم تكن مجرد أنساق لغوية مباشرة وجافة... ولم تقف العلاقة بين عناصرها الفنية عند سطح الأشياء؛ وإنما كانت تتضافر فيما بينها لتخلق الجمال الشفاف للجوهر وللشكل في وقت واحد...

وقد حرصنا على الوفاء بما قدمه البلاغيون في رؤيتهم لها ولكننا آثرنا أن نصُوغها صياغة جمالية مستندة إلى معارفهم وأذواقهم، ولم تقطع علاقتها بما انتهت إليه الدراسات الجمالية والأسلوبية في عالم اليوم... وانتهينا إلى أن الجملة الخبرية الجمالية أثبتت التقاء فعّالاً مع كثير من مقالات البلاغيين اليوم سواء في الشكل أم في الوظيفة والهدف...

فالجملة الخبرية بهذا التصور لم تكن مجرد إشارة لغوية عابرة، وليست مجرد حامل ومحمول؛ وإنما دلت على تناغم أصيل وفعّال مع الذات والحياة... والوجود؛ وإن قامت على أساس من الجزئيات النصيّة؛ ولكنها في النهاية نصٌّ متكامل ما دام أنه يفيد معنى بذاته، ويقدم رؤية فنية وفكرية ومستقلة.

أخيراً يمكننا القول: إن الجملة الخبرية فيما بنيت عليه من أشكال جمالية؛ يمكن أن تكون حاجة جمالية للإنسان؛ وكذلك هي الجملة الإنشائية؛ ثم قل البلاغة كلها.

فالإنسان يحتاج إلى الجمال؛ ويتشبع به لتسمو روحه؛ وهو قادر على الوصول إلى ذلك في أساليب الصور الشعرية والفنية المكتنزة لأشكال إبداعية كثيرة، منها أساليب البلاغة بما فيها من خبر وإنشاء... وكل أسلوب فيها يشكل تجربة متفردة تقرأ الواقع النفسي والفكري والاجتماعي... وبكلام آخر إنه إبداع جمالي يخلق الواقع النفسي والاجتماعي... و... بأساليب جديدة مثيرة ومدهشة لكنها لا تهدم الماضي بل تبني عليه؛ لأن اللغة جزء جوهري أصيل لكل من الحاضر والماضي والمستقبل... وعلى مستويات عدة. وهي مستويات تتضمن في بنيتها روح الدلالة الفكرية والرؤية النقدية التي يبني عليها

المتلقي اتجاهاته الفنية والنقدية والفكرية... فالمؤلف حاضر في نصه شاء المتلقي أم أبى؛ ولم يمت أبداً كما ذهب إليه (رولان بارت) في نظرية (موت المؤلف)[63]. وبذلك فإن أدوات التشكيل البلاغي أدوات نقدية ثرية في فهم النص الأدبي... وهذا ما يتمثل أيضاً في أسلوب الإنشاء وأغراضه الحقيقية والمجازية كما سيأتي.

❖❖❖

obeikandl.com

(((حواشي الفصل الثاني من الباب الأول)))

(1) نهاية الإيجاز 37 وانظر مفتاح العلوم 251 وما بعدها والإيضاح 21 والطراز 517.

(2) مفتاح العلوم 259 وانظر الإيضاح 22 وما بعدها.

(3) انظر دلائل الإعجاز 211 ومفتاح العلوم 254 والإيضاح 22 وما بعدها والطراز 518 وما بعدها.

(4) الأصمعيات 38 ق 43 ومفتاح العلوم 263 والإيضاح 25.

(5) انظر معاني القرآن للفراء 2/ 78. 79 وتأويل مشكل القرآن 292.

(6) انظر معاني القرآن للزجاج 1/ 75 و2/ 487.

(7) الكشاف 1/ 623 وانظر فيه 3/ 119 و558.

(8) الكشاف 3/ 27.

(9) لسان العرب. مادة (فأد).

(10) معاني القرآن للفراء 2/ 221 وانظر الكشاف 3/ 301.

(11) معاني القرآن للزجاج 1/ 306.

(12) الكشاف 3/ 364.

(13) انظر الصاحبي 179 والبرهان في علوم القرآن 2/ 334.

(14) الكشاف 1/ 365.

(15) الكشاف 3/ 59.

(16) الكشاف 3/ 59.

(17) الكشاف 2/ 144.

(18) دلائل الإعجاز 356 وانظر فيه 353. 355.

(19) الكشاف 1/ 468 وانظر في ظلال القرآن 1/485.

(20) الكشاف 1/ 484. 485 وانظر في ظلال القرآن 1/ 537. 538.

(21) انظر في ذلك ما ورد في بلاغة الكلمة والجملة 101.

(22) شم الأنوف: كناية عن المجد والعزة. غرانق: جمع غرنوق؛ وأراد الشاب الأبيض الجميل. الدَّفَني: ضَرْب من الثياب المخططة، الأَبراد: الأثواب الطويلة. ثَقِف: حاذق. يُهِلّ: يصيح.

obeikandi.com

الإقْصاد: إصابة السهم للهدف.

(23) الكشاف 3/ 458 وانظر فيه 4/ 264.

(24) لسان العرب. مادة (وعد).

(25) الكشاف 134/3.

(26) الكشاف 4/ 143.

(27) الكشاف 3/ 234.

(28) الكشاف 4/ 182. 183.

(29) الكشاف 1/ 482.

(30) دلائل الإعجاز 315. 316 وراجع حاشية (7) من القسم الأول، وانظر الحديث عن أَضْرب الخبر في مفتاح العلوم 258. 264.

(31) مفتاح العلوم 258 وانظر الإيضاح 24 وما بعدها (أضْرُب الخبر).

(32) انظر هسهسة اللغة 85. 96 وانظر الخطيئة والتكفير 90 و 123. (والكتابة في درجة الصفر 16 – رولان بارت (R.barthes, S/Z Editions Du Seuil/ Points, 1976,P.16)

(33) انظر الخطيئة والتكفير 29 وما بعدها و44. 48 و127 ونظرية البنائية في النقد الأدبي 39 و108 وما بعدها و137. 138 و140 وما بعدها وانظر فيه ما يتعلق بالأنظمة اللغوية.

(34) انظر بنية اللغة الشعرية 6.

(35) الأسلوبية والنقد الأدبي 39.

(36) انظر مغني اللبيب 37 و55 والجنى الداني 393 وجامع الدروس العربية 2/ 317 وما بعدها وانظر دلائل الإعجاز 322.

(37) دلائل الإعجاز 325 وانظر حديثه عن (إن) فيه 322 فهو حديث بديع.

(38) انظر جامع الدروس العربية 2/ 325.

(39) مغني اللبيب 59 وانظر فيه 46 وجامع الدروس العربية 2/ 327 والجنى الداني 402 والبرهان في علوم القرآن 4/ 255 وما بعدها.

(40) انظر مغني اللبيب 253. 254 ودلائل الإعجاز 258 والجنى الداني 568 والبرهان في علوم القرآن 4/ 337.

(41) انظر مغني اللبيب 383. 384 والبرهان في علوم القرآن 2/ 422 والجنى الداني 615 وما بعدها.

(42) انظر الخصائص 1/ 314 والجنى الداني 95 وما بعدها.

(43) الجامع الصغير. رقم الحديث (2457).

(44) انظر مغني اللبيب 231 وجامع الدروس العربية 2/ 310. 311 والجنى الداني 255 والبرهان في علوم القرآن 2/ 431 و4/ 331.

(45) مغني اللبيب 230. 231.

(46) انظر الجنى الداني 57 و153 والكشاف 4/107. 108.

(47) انظر البرهان في علوم القرآن 3/ 45. 51 وانظر فيه 2/389 والجنى الداني 141 وما بعدها.

(48) انظر مغني اللبيب 443.

(49) انظر الجنى الداني 142. 143.

(50) انظر الجنى الداني 59. 60 والبرهان في علوم القرآن 4/ 307. 309.

(51) انظر الجنى الداني 381 وما بعدها ومغني اللبيب 96 والبرهان في علوم القرآن 2/ 430.

(52) انظر الجنى الداني 390. 393.

(53) انظر الجنى الداني 48. 55.

(54) انظر مغني اللبيب 144. 150.

(55) انظر الجنى الداني 316. 317.

(56) انظر مغني اللبيب 427. 428.

(57) الجنى الداني 316.

(58) انظر البرهان في علوم القرآن 2/ 423. 427 والكتاب لسيبويه 1/ 395 ومغني اللبيب 463 و641. 646 والجنى الداني 350. 351 و507.

(59) انظر الجنى الداني 350. 351.

(60) مغني اللبيب 82 وانظر الجني الداني 522 وما بعدها والبرهان في علوم القرآن 4/ 269.

(61) انظر مغني اللبيب 82. 83 والجني الداني 523. 527.

(62) انظر مثلاً: الجنى الداني 332.

(63) انظر الخطيئة والتكفير 27. 28 و56 و62. 66 و71. 72 وكيفية قراءة النص الأدبي 269. 270 و280. 281 و296.

❖❖❖

obeikandl.com

obeikandl.com